الإمام الحسين (عليه السلام)

في ضمير الأديان

الشيخ
عبد الشهيد الستراوي

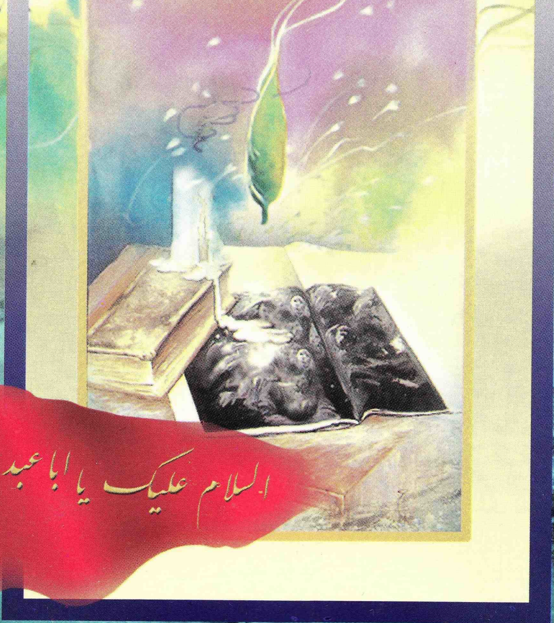

السلام عليك يا ابا عبد الله

دار العلوم
للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع
بيروت-لبنان

مكتبة نرجس PDF
www.narjes-library.blogspot.com

الإمام الحسين
ضمير الأديان

جميع الحقوق محفوظة ومسجلة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة : حارة حريك ـ بئر العبد ـ شارع السيد عباس الموسوي ـ الهاتف : ٠١/٥٤٥١٨٢ ـ ٠٣/٤٧٣٩١٩ ـ ص.ب : ١٣/٦٠٨٠

المستودع: حارة حريك ـ بئر العبد ـ مقابل البنك اللبناني الفرنسي ـ تلفاكس : ٠١/٥٤١٦٥٠

www.daraloloum.com E-mail : daraloloum@hotmail.com

الإمام الحسين
ضمير الأديان

تأليف

عبد الشهيد الستراوي

دار العلوم
للتحقيق والطباعة
والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إليك يا سر الوجود...

إليك يا صاحب العظمة...

إليك يا سيدي... إليك يا أبا عبد الله الحسين...

إليك سيدي أقدم مجهودي القليل في حقك...

راجياً شفاعتك في يوم الورود...

حيث لا ينفع مال ولا بنون...

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

يوم الحسين في التاريخ كان يوماً واحداً وهو يوم عاشوراء (لا يوم كيومك يا أبا عبد الله)[1]. في هذا اليوم تواجهت قيم الحس الذي يتوق إليه المؤمنون وكل طلاب الحرية من كل الأجناس والأقوام والملل، وقيم الباطل الذي يتبعه عبدة الشيطان والهوى.

في يوم الحسين كانت الحرية ترفرف على مخيمه، وكانت العبودية هي المحور الأساس لمعسكر الشر والباطل، معسكر يزيد.

وكانت الإنسانية والنبل عند أهل بيته، وصحبه البررة وكانت الخسة والدناءة عند جيش بني أمية. وحيث لا تلتقي الحرية إلا مع الإنسانية، فتشكل دائرة التضامن التي يلتقي على أساسها الأفراد

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٣٨، في مقتله ﷺ.

التقى الحسين مع صحبه، وصحب الحسين معه على أساس تلك القيم الحقة. فكانوا فعلاً يمتلكون حريتهم لأنهم يمتلكون إرادتهم، فعاشوا كل معاني النبل والإنسانية مع الحسين.

تأسست في ذلك اليوم، وبالتحديد في ساعتين ـ جرت فيهما معركة الشرف والتي قادها الإمام الحسين ـ معرفة جديدة للحياة، أعطت للحرية وزناً وللإنسان قيمة، بعد أن كان الناس يعيشون وكأنهم أشباح مبهمة، بعيدة كل البعد عن الواقع، تختلط عليهم الأمور ثم تتكسّر في ظلام الأبدية، بغير ضجيج.

في ذلك اليوم، قام الحسين على إسم الله، ومضى على إسم الله، واستشهد على إسم الله، عندما رماه رجل بسهم محدّد له ثلاث شعب، وقع في قلبه، فقال:

(**بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله**)، ورفع رأسه إلى السماء قائلاً: (إلهي إنك تعلم، أنهم يقتلون رجلاً، ليس على وجه الأرض إبن بنت نبي غيره)[1].

فكيف لا يؤسس هذا معرفة جديدة، حيث سما بغاية كانت نفسه أعدت لأجلها؟ وكانت تختلف عن كل الغايات، والأهداف، غاية تحتقر كل ما في الحياة من أشياء، ولا ترى سوى الملكوت الأعلى هدفاً، ودون السماء مستقراً.

---

(١) مقتل الخوارزمي: ١٨٩، واللهوف في قتلى الطفوف، لابن طاوس: ٧١.

فشخصية الحسين تحمل معنًى إلهياً، وسراً رسولياً، وقبساً علوياً، ينير للإنسانية في حالكة الظلم، وفي الليل الأركن دربها، ويصحح مسيرتها، فتكون حياتها مستقرة، تحمل كل عناصر السمو والخلود.

فتعالوا معاً لنتصفّح هذه الأوراق، التي خطتها يد خادم من خدام الحسين، لنرى كيف أن هذه الشخصية عظيمة في كل نواحي العظمة.

وبذلك نسأل المولى القدير أن يقينا شرور الدهر ونكبات الأيام، إنه سميع الدعاء

عبد الشهيد مهدي الستراوي

٧/ صفر/ ١٤٢٤هـ

الفصل الأول

على نهج الأنبياء

أعطى الإمام الحسين عليه السلام كل ما يملك في سبيل إقامة راية التوحيد، وإعادة الحياة المستقرة إلى الأُمة، حيث كان يرى أنه لا يتم ذلك إلاّ بإرجاع الحق إلى أهله، وإقامة العدالة بإصلاح المجتمع، واجتثاث الباطل من جذوره، فضحّى في سبيل ذلك بكلٍّ غالٍ ورخيص حتى جاد بدمه الطاهر.

فكانت ثورة الحسين عليه السلام تحمل في داخلها كل معاني النبل والإباء، وكل القيم الإنسانية النبيلة، متجاوزة الأطر الضيقة لتكون مدرسة لكل الأحرار، تتفاعل على مرور الأزمان، وتكون حية في النفوس، وتبقى شعلة لكل الثوار يستنيرون بها دربهم ويأخذون منها نهجهم.

لماذا بقيت ثورة الحسين عليه السلام متّقدة إلى يومنا هذا؟ وما هي البواعث التي جعلتها حية في النفوس؟ وكيف نحافظ على هذه البواعث حتى تزداد وتتسع المساحة من الناحية الجغرافية ليمتد

نهج الحسين على كل رقعة في العالم، ومن الناحية الزمانية ليستمر وهج هذه الثورة إلى يوم يبعثون؟

عبر عن ذلك الإمام الباقر عليه السلام في قوله: (**إن لجدي الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تنطفىء إلى يوم القيامة**)[١].

فالثورة التي فجرها الحسين بن علي عليه السلام، لم تكن كما صورها البعض من أنها ثورة عاطفية مرتجلة قام بها بغية إخراج الذين خذلوه، أو رغبة في إثارة المؤيدين والرافضين على السواء وتحميل ضمائرهم وزر قتل آل النبي صلى الله عليه وآله، بل حاول البعض أن يُحجِّم من ثورة الحسين عليه السلام وقال بأنها ثورة أخلاقية كان يبتغي من ورائها عزل العقيدة المحمدية عن مسالك التهلكة والنجاة بها إلى الطريق الصحيح، والبعض الآخر حصرها في إطار رغبة الإستيلاء على الحكم والإيثار بالخلافة.

كل ذلك من أفواه وأقلام أنصاف المثقفين وأدعياء الدين، الذين يسكتون عن الباطل ويداهنون الظالمين بفتات من خيرات السلطان، إذ أنهم كما يصفهم القرآن:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[٢].

---

(١) مستدرك الوسائل ج١٠: ص٣١٨، ح١٣ مثله.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٩.

ويقول أيضاً:

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[1].

إن ثورة الحسين بعيدة عن هذه التصورات المغرضة حيث إنها الامتداد الطبيعي لرسالات الأنبياء، ويكفينا أن الحسين سبط رسول الله ﷺ، قد ورث من النبي رسالته وورث من الأنبياء رسالاتهم ونهجهم، فأنت تقف أمام ضريح سيد الشهداء مخاطباً إياه:

(السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله، السلام عليك يا وارث نوح نبي الله، السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله، السلام عليك يا وارث موسى كليم الله، السلام عليك يا وارث عيسى روح الله، السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله)[2].

فالأنبياء والرسل جاؤوا بالمبادىء والقيم إلى البشرية مبشرين بالأديان السماوية مناضلين دون تحريفها، باذلين أنفسهم ومهجهم في سبيل ترسيخها في النفوس.

وعندما يقف هؤلاء الأنبياء والرسل أمام المترفين والمستكبرين وأصحاب السطوة، فإنهم يقفون بقوة العزة الإلهية التي لا قوة فوقها ويخاطبونهم باسم الله الذي أوحى لهم ما

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٦.

(٢) مصباح الزائر: ص١٣٠ ـ ١٣١، وعنه بحار الأنوار ج٩٨، ص٢٢٣، ح٣٤.

يقولون ورسم لهم أدوارهم التي بعثهم للبشرية من أجلها، فلا يحق لنا أن نفسر أدوارهم بغير هذا المنطلق، وإلا فإن ذلك يعني التلاعب بتاريخ هؤلاء العظام.

وثورة الحسين ليست وليدة ساعتها، بل هي في سفر الوصايا الإلهية، نقشت عليها قبل نزول الرسالة المحمدية، وعلم ذلك عند ربِّ الأكوان وباعث الرسالات، إذ كان سبحانه يعلم بما ستتعرض له هذه الرسالة من اهتزاز بعد نزولها على النبي ﷺ، فهيأ لها الحسين عليه السلام.

فكانت هذه الثورة التي جسدت كل ما جاءت به رسالات الأنبياء، وبقيت لتكون مناراً وعلماً هادياً لدين الله عزّ وجلّ فلماذا بقيت، واستمرت جيلاً بعد جيل لتحيا في كل بقاع العالم؟

وفي الجواب على هذا السؤال هناك عدة أمور:

أولاً: الإرادة الإلهية:

شاءت الإرادة الإلهية أن تجعل من شهادة الإمام الحسين عليه السلام عطاءً مستمراً لا ينفد، ومسيرة متواصلة تملك الامتداد الزمني، وثورة إنسانية تهيمن على وجدان وضمير وروح كل إنسان في هذا الوجود، يعيش في داخله الإحساس المرهف، الذي يرفعه إلى مستوى العبودية لله ليمثل المشاركة الوجدانية لكل مظلوم في هذا الوجود، نقول: الإرادة الإلهية شاءت ذلك لأن الحسين أعطى كل

ما يملك وفق هذه المشيئة، عندما خاطب أخاه محمد ابن الحنفية:

(شاء الله أن يراني قتيلاً، وأن يراهنَّ سبايا).

فلم تكن ثورة عاطفية أو عديمة التخطيط، بل هي نابعة من تخطيط المشيئة الإلهية، فها هو الشهيد يقول لعبد الله بن جعفر:

(إني رأيت رسول الله في المنام وأمرني بأمرٍ أنا ماضٍ له)[1].

ولما أشار عليه عمر بن لوذان بالانصراف عن الكوفة إلى أن ينظر ما يكون عليه حال الناس قال عليه السلام:

(ليس يخفى عليّ الرأي، ولكن لا يغلب على أمر الله وأنهم لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي)[2].

وفي مكة حينما أراد السفر منها إلى العراق قال:

(كأني بأوصالي هذه تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأن مني أكراشاً جوفا وأجربةً سغبا لا محيص عن يوم خُطَّ بالقلم)[3].

كل ذلك فيه دلالة واضحة على مسيرة الحسين الإلهية، وأنها

---

(١) كلمات الإمام الحسين عليه السلام للشيخ الشريفي: ٣٣١، ح١٠٩، سير أعلام النبلاء ج٣، ص٢٩٧ مثله.

(٢) تاريخ الطبري ج٦، ص٢٢٦، والإرشاد ج٢، ص٧٦، وبحار الأنوار ج٤٤، ص٣٧٥.

(٣) اللهوف في قتلى الطفوف: ج٣٣.

جاءت بوحي إلهي ليمثل ذلك الأمر السماوي، ويمضي على دربه بخطى رسولية رسالية، ليقف باذلاً الأنفس ، والمهج في سبيل العقيدة والدين، فيقف وأصحابه بقوة العزة الإلهية التي لا قوة فوقها، وفي اللحظات الأخيرة يناجي ربه ويتضرع إليه بقلب منيب:

(صبراً على قضائك لا إله سواك، ولا معبود غيرك صبراً على حكمك، يا غياث من لا غياث له، يا دائماً لا نفاد له، يا محيي الموتى، يا قائماً على كل نفس، أحكم بيني وبينهم وأنت خير الحاكمين)[1].

تلك هي كلمات الإمام، ينبع منها الإيمان الصادق الذي يعبر عن تعلقه بالله حيث فوض الأمر وجميع ما نزل به إليه إنه بعين الله التي ترعاه في طول هذه المسيرة (رضاً برضاك لا معبود سواك).

فالمشيئة العليا هي التي أوحت ورسمت لهذه الثورة لتبقى مدى الدهر حية مشتعلة في النفوس لا تنطفىء.

ثانياً: المسألة الثقافية:

قول الصادق عليه السلام:

(إن لجدي الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تنطفىء إلى يوم القيامة)[2].

---

(١) مقتل الحسين للمقرم: ص٣٤٥.

(٢) مستدرك الوسائل ج١٠، ص٣١٨، ح١٣.

وراء تلك الحرارة وذلك الحماس المتواصل ثقافة تتحدى كل عوامل التطور الزمني والمكاني، وتفرض نفسها في مختلف الجهات، والأبعاد، لتبقي ذلك الحماس متَّقداً في كل وقت وزمان ومكان.

المسألة الثقافية النابعة من المعطيات الدينية ومن أُصول العقيدة الإسلامية هي التي تحرك الإنسان تجاه قضاياه الحيوية في أبعادها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وقضية الإمام الحسين وثورته التي لخصت رسالات السماء إنما يتحرك لها الإنسان، ومن خلالها، وفق تلك المعطيات الدينية، وأصول العقيدة الإسلامية التي تجعله يتفاعل معها ليحافظ على أهدافها وإنجازاتها، بترسيم تلك الشعارات والخطابات الكربلائية التي امتزجت بدماء الإمام الحسين عليه السلام وصحبه البررة.

كانت الثقافة الحسينية تحمل شعارات ولافتات لها جذورها الممتدة في عمق التشيع، والتي تعبر عن منهجية متكاملة، كانت هي الأساس لوجود هذه الثقافة، التي حافظت على هذه الحرارة الحسينية.

ويمكننا أن نوجز أبرز معالم المسألة الثقافية التي ترتبط بالثورة الحسينية، وتعطي لها ذلك الوهج والاستمرار، في كلمتين فقط وهي «أن شهادة الحسين عبرة ودمعة، وعبرة وأسوة».

العبرة والدمعة تاريخها وفلسفتها:

أما تاريخها فقد ارتبط بالحسين مع بدء الخلق، عندما خلق الله آدم، فذكر له جبرائيل أسماء الخمسة الأطهار (محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام) فقال له آدم عليه السلام:

(مالي إذا ذكرت الحسين تدمع عيني، وتثور زفرتي)[1].

وهكذا كان بقية الأنبياء بعد آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى، فإنهم قد مرّوا بكربلاء، وحصلت لهم المعاناة فيها[2].

حتى قال الحسين عليه السلام:

(أنا قتيل العبرة لا يذكرني مؤمن إلا بكى)[3].

وهناك أحاديث كثيرة، تدل على أن الله لم يبعث على وجه الأرض نبياً أو وصياً إلا ذكّره بمصاب الحسين عليه السلام فبكى عليه قبل استشهاده، وأن النبي والزهراء وجميع الأئمّة عليهم السلام بكوا على الحسين عليه السلام بكاءً شديداً حتى كان من ألقاب الحسين عليه السلام (صريع الدمعة الساكبة)، (وعبرة كل مؤمن ومؤمنة) حتى بكته أسرته يوم ميلاده، وحتى قال الإمام الرضا عليه السلام:

---

(١) بحار الأنوار ج٤٤، ص٢٢٣ ، ح١.
(٢) بحار الأنوار ج٤٤، ص٢٢٣ ـ ٢٤٩، ب(٣٠) إخبار الله تعالى أنبياءه بشهادته.
(٣) كامل الزيارات: ١٠٨ ـ ١٠٩، وعنه بحار الأنوار ج٤٤: ص٢٧٩، ح٥.

(إن يوم الحسين أقرح جفوننا، وأسبل دموعنا، وأذلَّ عزيزنا بأرض كرب وبلاء)[1].

وقال الإمام المنتظر عليه السلام في زيارة الناحية مخاطباً جده الشهيد:

(ولئن أخرتني الدهور، وعاقني عن نصرك المقدور، فلأندبنك صباحاً ومساءً، ولأبكين عليك بدل الدموع دماً)[2].

وكما أن لهذه العبرة تاريخ قبل الحسين حيث بكاه الأنبياء، وبعد الحسين حيث بكاه الأئمة، وقد ندبوا إليه إلى زماننا هذا، وشجعوا عليه بأن من بكى له من الأجر والثواب الكثير، فإن لهذه العبرة والبكاء فلسفة وثقافة خاصة به، حيث هو في حقيقته يحمل في داخله وظيفة تاريخية، وليس مجرد طقوس، تمارس بحكم العادة أو التقليد، أو شعيرة دينية مستمرة تفعل بقوة الدفع العاطفي والروحي، ونحن ملزمون بمعرفة هذه الوظيفة لنكون على بصيرة من تمسكنا بالحسين والبكاء عليه.

صحيح أن البواعث الدينية تقف خلف هذه الاستمرارية حيث إنها أوجدت هذه الممارسة، التي تنطوي على وظيفة لا تعد منفصلة عن تلك البواعث الدينية التي تقف خلفها فهي تعد تعبيراً

---

(١) الشعائر الحسينية: ص٤٣.

(٢) المصدر السابق.

عن حالة فزع فردي، أو جماعي من سلطة قاهرة أو جائرة، سلطة مطلقة القوة والبطش، حيث مع استشهاد الحسين عليه السلام تأسست حالة فزع جديدة، لم يكن الإسلام المبكر يعرفها، فكانت هذه الحالة (الفزع) التي تمثلت في البكاء مخيفة للسلطة القاهرة التي لا تقيم وزناً للفرد مهما كانت مكانته، حتى ولو كان حفيد النبي صلى الله عليه وآله فهي مستعدة للقتل، وقطع الرؤوس، وحرق الخيام، والسلب والنهب.

وقد جسد ذلك الأئمة الأطهار، وعلى رأسهم الإمام السجاد عليه السلام، فكانت حالة المناحة والبكاء تشكل فزعاً للسلطة، وقوة ترعبهم وترهبهم.

وقد بكى علي بن الحسين عشرين سنة، ما وضع بين يديه طعام إلا بكى، حتى قال مولى له: جعلت فداك يابن رسول الله إني أخاف أن تكون من الهالكين قال عليه السلام: (**إنما أشكو بثي وحزني إلى الله، وأعلم من الله ما لا تعلمون إني لم أذكر مصارع بني فاطمة إلا خنقتني العبرة**)(١).

لا ريب أن هذه العبرة التي يسكبها الموالي، ومن يحضر مجالس التعزية للحسين تؤدي وظيفة مهمة، فهي تذكره بما ارتكبت تلك السلطة الأموية من الجرائم البشعة بحق الإمام

---

(١) إقناع اللائم: ص٩٤.

الحسين وصحبه، وتدخله في حالة مماثلة ليقارن من خلالها الوضع الذي يعيشه وتلك السلطة التي تحكمه، وأن يقوم بنفس الدور إن هي أصبحت كالدولة الأموية، وتخلت عن كل القيم الدينية والإنسانية، فتكون لها القابلية لأن تسحق مواطن عادي فتفصل رأسه عن جسده.

هذه هي حقيقة البكاء، فهي ليست مجرد طقوس تمارس دون خلفية معروفة ومعهودة.

أما العبرة والأسوة:

فالحسين لم يكن مُلكاً لأحد، فهو ليس مُلكاً لطائفة أو جماعة أو فئة، وهو لم يأت لمجتمع دون مجتمع، فالحسين للجميع، وهو إمام المسلمين، مفترض الطاعة، جاء ليستنقذ العباد كل العباد دون النظر إلى دين أو مذهب أو قوم أو عنصر أو لون أو لغة، بل كان لجميع الخلق، لذلك يخاطبه الإمام الصادق عليه السلام في زيارته له يوم الأربعين، ويوجه كلامه لرب العباد قائلاً:

(وبذل مهجته فيك ليستنقذ عبادك من الجهالة، وحيرة الضلالة)[١].

وكلمة العباد أصدق تعبير، وأشمل وصف لثورة الحسين، إنها إنسانية لا تختص بفئة أو أمة أو جيل، فهي كانت لإنقاذ الأمم

---

(١) تهذيب الأحكام ج٦، ص٩٨، ح٢٠١، وكامل الزيارات: ٩٧٠.

بعيداً عن انتماءاتهم العرقية والدينية، وتوجهاتهم السياسية والاجتماعية، جاءت تحمل أهدافها، لتعلن للملأ بيانها الأول، إنها ثورة تطالب بإعادة وضع الأمة الإسلامية إلى وضعها الطبيعي، ورفض كل الأوضاع الشاذة التي طرأت على الأمة، وكل تبدل حدث فيها، وأدى بها إلى الوراء والتراجع وكل تحريف وزيف، في سبيل بناء مجتمع إسلامي يتخذ من قوانين الإسلام وأنظمته طريقاً للوصول إلى غايته الكبرى وتحقيق طموحاته التي يصبو إليها، ولا يكون ذلك إلا بسيادة الحق، وسيادة القيم الإنسانية، التي تتكفّل بتحقيق كل ذلك للإنسان، وإليك بعض مضامين هذه الثورة الحسينية، التي تتبين من خلال تلك النصوص التي أطلقها الحسين عليه السلام في أثناء مسيرته الكربلائية قائلاً:

(ألا وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أُمة جدي أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر).

وكانت منطلقاته قائمة على أساس الحق حيث قال:

(إن الدنيا قد تغيرت وتنكرت، وأدبر معروفها، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل ألا ترون إلى الحق لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه؟)[١].

---

(١) حلية نفس المهموم: ص٦٠.

كانت تلك أدبيات هذه الثورة العملاقة التي لم تكن مجرد عبرة، وإنما كانت تحمل معها العِبرة والدرس لكل الأجيال والأحرار، السائرين على نهج الإصلاح والتغيير، وحمل راية الحرية لنيل الكرامة الإنسانية.

ثالثاً: تفعيل لا انفعال:

الذي حدث في ثورة الحسين عليه السلام مجزرة رهيبة لا تزال محفورة في جبين التاريخ، ويكرّرها المؤرخون في كتبهم بكل تفاصيلها، حيث إنهم لا يمكنهم أن يتجاوزوا هذا الحدث التاريخي المؤلم الذي أدّى إلى استشهاد الحسين عليه السلام وصحبه في تلك الواقعة، التي شهدت أحداثها أرض الطف في العراق فخلّفت هذه الحادثة جُرحاً عميقاً في التاريخ الإسلامي، وتحول ذلك الجرح إلى مجموعة إثارات وتساؤلات وانتقادات على صعيد الأمة الإسلامية ورجالاتها وشخصياتها، وهذه بدورها شكلت حركة فكرية ثقافية سياسية قادت الأمة إلى مقاومة الإنحراف في وسطها، ووضع يدها على مواضع الخطأ.

هذه الحملة كان لها شعارات، وكان لها محتوى، وكلاهما كانا نتاج هذه الثورة العظيمة، فالشعارات التي حملتها أدبيات نهضة الحسين عليه السلام تحولت إلى شعائر ذات أبعاد سياسية واجتماعية، تَحدّد من خلالها ذكرى الإمام الحسين عليه السلام

واستشهاده، وتلك الشعائر بدورها هي التي حافظت ولا زالت تحافظ على ذلك المحتوى الذي حمل أهداف ومعطيات ثورة الحسين عليه السلام، فشعارات الحسين عليه السلام في كربلاء هي ليست مجرد لافتات رفعها الإمام ليواجه بها يزيد، ويبرر خوض معركته لأصحابه، بل هي تعبير عن واقع مرير كانت تعيشه الأمة ذلك الواقع الذي تسحق فيه كرامة الإنسان ويهدر فيه دمه وتداس فيه القيم والمعنويات.

الامتداد:

أمر رائع جداً أن يلتقي خط الحسين عليه السلام مع خط الأنبياء عليهم السلام، ليشكل الامتداد الطبيعي لرسالاتهم السماوية ويؤدي هذا الامتداد إلى نتيجة واحدة، وهي أن الجميع جاء لإنقاذ البشرية، ووضع يدها على مصادر النبع الصافي، لتزهر بكل أنواع الخير.

أمر رائع جداً أن يكون الحسين عليه السلام سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ووريث الأنبياء عليهم السلام ليحمل معه قضية الحق الأولى في كل دين، وهي الإيمان بالله الواحد الأحد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فقد خرج الحسين عليه السلام ليجسد ذلك طالباً للإصلاح في أمة جده: (إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي أُريد أن آمر

بالمعروف وأنهى عن المنكر). فكانت نهضة الحسين عليه السلام وثورته تمثيلاً عملياً لضمير الأديان، إنها سمت ورقت، فكانت الأولى والرائدة والوحيدة والخالدة في تاريخ الإنسانية.

* **الأولى**: لأنها في إطارها الديني كانت أول ثورة سجلت في تاريخ الإسلام، وفي تاريخ الأديان السماوية الأخرى على مستوى المبادىء والقيم.

* **والرائدة**: لأنها مهدت لروح ثورية وثورة روحية انطوت على صدق المسلمين، تذكرهم في نومهم وقعودهم بمعنى الكرامة ومعنى أن ينتصب المؤمن كالطود الصلب في وجه موقظي الفتنه باسم الدين، ورافعي مداميك الشرك والعبث في صرح العقيدة، فكانت دعوة جاهرة لنقض هذه المداميك، وهدم دعائم الضلال والوقوف أمام أهداف الذين حادوا عن صراط الشريعة، ولعبوا بنواميس وشرائع الدين وقامروا بكيان الديانة الوليدة تمهيداً لوأدها قبل أن تحبو.

* **والوحيدة**: لأنها استحوذت على ضمائر المسلمين فيما خلفته من آثار عقائدية ضخمة، فما كان قائماً من ممارسات، لدى القائمين على الإسلام، والحاكمين باسمه، كان بحاجة إلى هزة انتحارية فاجعة لها وقع الصاعقة آنذاك، ومسرى الحب في الضمائر، لأجيال وحقب تالية.

* **والخالدة:** لأنها إنسانية، أولاً وآخراً، انبثقت من الإنسان وعادت إليه مجللة بالكرامة، وملطخة بالدم الزكي ومطهرة بثوب الشهادة المثلى، فظلت في خاطر المسلم رمزاً للكرامة الدينية، وشاهداً من خلالها صفحة جديدة من مسيرة عقيدته، صفحة بيضاء، عارية من أشكال العبادية والرق والزيف، مسطّرة بأحرف مضيئة تهدي وجدانه إلى السبل القويمة، التي يتوجب عليه السير في مسالكها، ليبلغ نقطة الأمان الجديرة به كإنسان.

تلك هي مبادىء ثورة الحسين عليه السلام التي بها سمت وأصبحت في رقيها تحمل الكمال، والسمو الذي تحمله رسالات الأنبياء.

فليس كثيرٌ على الحسين وهو ابن نبي ختمت النبوة به أن يكون الامتداد لخط النبوة، وحلقة الوصل لذلك اللب الرسالي الأصيل، الذي يشكل الارتباط السامي لدعوة الله لهداية البشر.

كما أن الحديث على الحسين عليه السلام يمتد مع الزمن إلى كل عصر، ليضل الصورة الحقيقية المجسّدة للفكر السماوي.

الفصل الثاني

أوجه التشابه
ما هي أوجه التشابه بين الحسين والأنبياء ولماذا؟

إذا ما حاولنا مجدداً قراءة رسالات الأنبياء لاحظنا بوضوح أنها تتفق في كونها من مصدر واحد، وتدعو إلى إله واحد في هذا الكون، كما أن هدفهم الذي أرسلوا من أجله هو هداية الإنسان إلى خالقه، ودعوتهم إلى طاعته، والالتزام بأوامره.

هكذا كانت دعوتهم بدءاً من نبي الله آدم ومروراً بإدريس ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى إلى نبينا محمد ﷺ. فكان أصل دعوتهم هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور المتمثل في العقل والفطرة، حيث خلق الله الإنسان، وأوجد له هذا النور، الذي به يهتدي إلى الطريق: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾(١).

وفي آية أخرى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾(٢).

---

(١) سورة النحل، الآية: ٧٨.

(٢) سورة الروم، الآية: ٣٠.

والنور الآخر هو نور التشريع، وهو إيصال هذه الشرائع والأحكام والدساتير إلى هذا الإنسان لكي يتعلم ويهتدي بها، حتى لا يضل الطريق، وكان ذلك عبر هؤلاء الأنبياء والرسل، فتواصل معهم رب العباد بواسطة ملائكته الكرام: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾[1]. حيث كانت ظلمات الجهل والخرافة والظلم والاستعباد تسيطر على المجتمعات، وكان هدف الأنبياء هو إرجاع الناس إلى فطرتهم وعقلهم، بتوجيههم إلى النور وهو الله ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[2].

من هنا كانت مهمة الحسين عليه السلام التي أخذها على عاتقه وهي النهوض بأمة الإسلام من خدرها، وإعادتها إلى الصراط المستقيم، إعادتها إلى فطرتها، وإلى عقلها، بإرجاعها إلى الله عزّ وجلّ بعد أن انحرفت عن دينه.

والحسين عليه السلام جدير بهذه المهمة، فهو سبط رسول الله تربّى في حجره، وأخذ عنه، وقد عرف عنه تجرده في ذات الله وذوبانه في بوتقة التوحيد وربانيته التي جسدها في نهضته لمقاومة الباطل.

فانطلق الإمام الحسين عليه السلام من قاعدة التوحيد التي انطلق منها الأنبياء العظام لهداية مجتمعاتهم، فكانت هذه القاعدة هي

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٣.

(٢) سورة النور، الآية: ٥.

الأساس الجذري لتقويض الكيان الجاهلي المبني على مفاهيم الشرك والكفر، وكانت راية (لا إله إلا الله) الحد الفاصل بينه وبين العدو، فلم يهادن، أو يداهن مطلقاً في عملية الإصلاح، التي كانت تحتاج إلى هدم أبنية الشرك وإقامة صرح التوحيد وهذه هي مسيرة أنبياء الله كلهم، حيث وجهوا العباد إلى عبادة الله بقولهم ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[1].

وهكذا كان الإمام الحسين عليه السلام، إذ أراد أن يرجعهم إلى عبادة الله وأحكامه، ولذا قال في خطبة له: (**أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من رأى سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرام الله ناكثاً عهده، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله، ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتولوا عن طاعة الرحمان، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله**)[2].

وهكذا استطاع أبو عبد الله أن يكون على منهاج الأنبياء ويغير وجه التاريخ، بانطلاقه من هذه القاعدة.

وأكد ألوهية مسيرته، عندما ناجى ربه في اللحظات الأخيرة، اللحظات التي أراد فيها كسب رضى الرب، وقد غطّت جسده

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.

(٢) تاريخ الطبري ج٤، ص٣٠٤.

الشريف السهام والنبال، وكثرت فيه الجراحات والطعنات قائلاً:

(هوّن عليّ ما نزل بي أنه بعين الله).

أو قوله: **(رضاً برضاك لا معبود سواك).**

كل ذلك يؤكد أن هذه المسيرة التي بدأت بالله تنتهي إلى الله خالق العباد.

مشكلة الانحراف في المجتمعات:

واجهت الأنبياء قضية مشتركة في كل المجتمعات التي بعثوا إليها، فليست مسألة التوحيد أو إنكار الخالق هي الأساس، لأن بعض المجتمعات كانت تؤمن بالخالق ولكنها تكفر به عملياً عندما تنحرف عن تعاليم رسله ورسالاته.

القضية الكبرى في المجتمعات البشرية هي الانحرافات السلوكية عن التعاليم السماوية، أي انحراف الإنسان عن دينه وعدم التزامه بتلك الأحكام، والتلاعب بها لتتوافق مع مصالحه وهواه.

والانحرافات التي واجهها الأنبياء كانت على عدة أشكال، وهي نفس الانحرافات التي واجهها الحسين عليه السلام والتي منها:

الإنحراف الإجتماعي:

كان الإمام بحكم مركزه الإجتماعي مسؤولاً أمام الأمة عما

يحدث فيها، وما منيت به من ظلم واضطهاد من قبل الأمويين، وهو أولى بحمايتها، وردّ الاعتداء عنها، ففي عصره ونتيجة انحراف الأمة عن دينها، انتشرت الكثير من الظواهر الغريبة في المجتمعات الإسلامية وبالخصوص المجتمع الكوفي. فالتناقض الصريح عندما تجد الإنسان لا يفعل ما يقوله في السلوك يؤكد حالة الابتعاد عن الإيمان، ويقرب الإنسان إلى حالة النفاق.

وأما ظاهرة الغدر والخيانة والتذبذب، فهي التي جرتهم إلى التخاذل عن نصرة الحسين عليه السلام، كما دبَّت في المجتمعات روح الانهزامية والطمع وسوء الخلق والتأثر بالدعايات.

الإنحراف السياسي:

لم تكن السلطة السياسية الحاكمة على الناس منبعثة من إرادتهم الحرة الواعية، وإنما كانت سلطة مفروضة عليهم بالقهر والحديد والقوة، فكانت سلطة مجردة عن الحق لا تملك أدنى مقومات البقاء، عدا مقومات القوة والانحراف عن الحق الذي يعني الإتجاه نحو إيجاد البدائل التي تفرض بقاءها كالعنصرية المقيتة وقيم العشائرية والقبلية وتحكيم سلطة المفسدين في الأرض.

ولم تكن سلطة يزيد ولا معاوية من قبله تملك شرعية البقاء ولا أهلية الحكم، فذاك يزيد شارب الخمور واللاعب بالقردة والخنازير وقاتل النفس المحترمة، فأي شرعية تبقى لهذا الحاكم

وأي أهلية تخوله للبقاء في سدة الحكم؟

وصل الأمر في عهده إلى أن يقتل الحسين سبط رسول الله، ويبيح المدينة لتفتض كل فتاة فيها، ويهدم الكعبة بالمنجنيق فأي انحراف أكبر من هذا الانحراف السياسي؟

الانحراف الاقتصادي:

أما الحياة الاقتصادية فلم تكن حسنة؛ لأنها اتسمت بالطبقية، فخلقت طبقة ارستقراطية غرقت في الثراء، عندما استغلت تواجدها أيام الدولة الأموية في عهد عثمان ومعاوية فكانت تحصل على الامتيازات والهبات، وكان الضحية هم الأغلبية من الضعفاء والمحرومين.

وقد أثرت الحياة الاقتصادية أثرها العميق والفعال في كيان المجتمع، ولعبت دوراً خطيراً في توجيهه نحو الشر والفساد وقد ظهر أثر ذلك في الجرائم التي اقترفها المنحرفون سلوكياً نتيجة لفقرهم وبؤسهم أو جشعهم لتحصيل المادة، وليس أدل على ذلك من اندفاع أكثر الجيش الذي خرج لقتال الحسين طلباً للمال، وزيادة الراتب والحصول على الجوائز.

الإنحراف الثقافي:

كانت الأمة الإسلامية تواجه خطراً ثقافياً يمس قيم ومفاهيم الدين ويؤسس لمفردات جديدة ملتصقة بالأرض وبعيدة كل البعد

عن السماء، فمن المفردات التي أسستها هذه الثقافة طاعة القيادة حتى لو لم يكن لهذه القيادة شرعية، فجاؤوا ببعض النصوص المزيفة التي صنعوا منها أدبيات لتلك الثقافة المنحرفة، حتى يبرروا أفعال الحكام غير الشرعيين، وجاء التاريخ ليسجل دوراً لمعاوية ويزيد على أنهم حكام شرعيون لا غبار عليهم، ولا يزال هذا التاريخ يذكرهم باعتبارهم جزءاً من سلسلة حكام الإسلام والمسلمين، وكانت ثقافة طاعة الأمير قد أفقدت المسلمين أبسط مفاهيم الإنسانية وقيمها، فلم يعودوا يملكون حديثهم، حتى يعبِّروا عن أنفسهم، ولا يملكون كرامتهم ليثأروا بها، فكانت ثقافة القوة والسلطة والحديد، هي المسيطرة على عقول الناس وأفكارهم، فأنّى لهم التحرك والنهوض لمقاومة هذا الانحراف؟

سلبت الضغوط الثقافية حريتهم وكرامتهم، بعد أن تسربت إلى عمق قواعد الأمة، وأفسدتهم فكرياً، وكانت هذه أشد من الضغوط السياسية والعسكرية، فكانت مشكلة الإنحراف والتي واجهها الإمام الحسين عليه السلام على كل المستويات، هي نفس المشكلة التي واجهها الأنبياء في مجتمعاتهم.

الفصل الثالث

معادلة صعبة

ولادته يوم شهادته

هناك معادلات صعبة لا تخضع لميزان الحسابات الرياضية والمنطق والقياس، وإنما هي معادلات يمكن لنا أن نصطلح عليها بالمعادلات الفكرية ذات القيمة المعرفية، لها خاصية يفهمها العقل دون العاطفة، بنظرة فلسفية تصبح فيها الحقائق تحمل صفة الرمزية والدلالة المعنوية.

من هنا نشأت الفكرة القائلة إن يوم شهادة الحسين عليه السلام هو يوم ولادته، وتؤكد هذه الفكرة الرواية الواردة عن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن أسماء بنت عميس، قالت:

(فلما كان بعد حول من ولادة الحسن، ولد الحسين عليه السلام وجاء النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا أسماء هلمي ابني فدفعته إليه في خرقة بيضاء، فأذّن في أُذنه اليمنى وأقام في اليسرى ووضعه في حجره فبكى، فقالت أسماء: بأبي أنت وأمي مم بكاؤك؟ قال: على ابني هذا، قلت: إنه ولد الساعة يا رسول الله، فقال: تقتله الفئة الباغية من

بعدي، لا أنالهم الله شفاعتي، ثم قال: يا أسماء لا تخبري فاطمة بهذا فإنها قريبة عهد بولادته)[1].

الحسين عليه السلام أعطى للوجود قيمة؛ لأنه ثار من أجل حق كل الشعوب، وثار من أجل مرضاة الله، وما دام الله خالق الجميع فثورته لا تختص بأحد معين، بل هي لكل خلق الله؛ له لأنها ثورة استمدت عزمها من روحية الشريعة، وكانت تهدف إلى إعادة بث هذه الروح في نفس كل مسلم، بل هي ثورة كل إنسان مظلوم ومضطهد ومقهور، ما دامت هي من أجل الحق، والدفاع عن كرامة الإنسان.

في ثورة الحسين عليه السلام جوهرة لا يعرف كنهها إلا أولئك الأحرار من كل المذاهب، وفي كل بقاع الأرض، تجذبهم بكل رغباتهم إلى جوهر الثورة بفطرتهم، ليردوا إلى منبع الكرامة والإنصاف والعدل والأمان، فثورة الحسين تسمو على المذهبية والطائفية والاعتبارات الحسية والمظهرية، التحكمية أو التسلطية أو الاستغلالية، فهي كانت ولادة جديدة لشخصيته العظيمة وترجمة لمبادئه ومثله، والعظمة الشخصية التي حصل عليها الحسين عليه السلام إنما هي للخصائص والميزات القدسية والإيمان التي استقاها من جده المصطفى صلى الله عليه وآله، وهي محور وأساس وعنوان

(١) مسند الإمام الرضا: ص١٣١.

لسيرته وثورته، إذ قام بها على اسم الله، ومضى فيها على اسم الله، وقتل شهيداً على إسم الله، فكيف لا تُحيي هذه الثورة النفس، وكيف لها أن تموت؟!. وهي لا ترى سوى الملكوت الأعلى هدفاً، وتحتقر كل ما في الحياة من أشياء؟!.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2].

عظمة الحسين عليه السلام:

تمثلت هذه العظمة في شخصيته التي كانت تحمل صفات الأنبياء فإن من ينبثق من عظمة النبوة (محمد) وعظمة الرجولة (علي) وعظمة الفضيلة (فاطمة) يكون أمثولة عظمة الإنسان، وآية الآيات البينات، فلم تكن ذكرى رجل بل ذكرى الإنسانية الخالدة، ولم تكن أخباره أخبار بطل بل خبر البطولة الفذة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

فالحسين عليه السلام رجل بل آية الرجال، وعظيم بل حقيقة العظمة، فما هي حقيقة الحسين عليه السلام؟

ضبط النفس:

تمثل ذلك عند الحسين عليه السلام والأئمة الأطهار عليهم السلام، وهم في أحلك الظروف والشدائد، فلم يذكر حالة واحدة يصور فيها ضعفاً أو تخاذلاً أو موقفاً متذبذباً في قضية سياسية أو أخلاقية أو عسكرية أو ما شابه ذلك، بل بلغ الحسين عليه السلام مستوى الكمال وقمة الإنسانية، ويؤكد ذلك انعكاس الداخل على الخارج، فحقيقة الحسين عليه السلام واحدة إذ أنها مجللة من نفسه القوية، ومن البناء الصلب الذي يتسم بالفضيلة والخير والعدل، بما هو حقيقة وفق مقتضيات الهداية الإلهية إلى الصراط المستقيم، والتربية المحمدية على المنهج الصحيح، والشجاعة العلوية التي تمثلت في ضبط النفس من أي مؤثر من المؤثرات.

(روي أن غلاماً وقف يصب الماء على الحسين، فوقع الإبريق من يد الغلام في الطست، فطار الرذاذ في وجهه فقال الغلام: يا مولاي والكاظمين الغيظ، قال: كظمت غيظي، قال: والعافين عن الناس، قال: قد عفوت عنك، قال: والله يحب المحسنين، قال: إذهب فأنت حر لوجه الله الكريم)[١].

---

(١) حياة الإمام الحسين: ص١٢٤.

وهذه القدرة على ضبط النفس التي تصورها هذه الحادثة الأخلاقية انعكست على شخصية الحسين عليه السلام وتجسدت في يوم الطف عند قتل كل صحبه وأهل بيته، فلم يُرَ إلاّ صابراً محتسباً أمره إلى الله، رابط الجأش، لم ينهر ولو للحظة واحدة كالحسين، مع علمه لما يجري على أهل بيته بعد مقتله، وقد خرج الحسين لهذه المعركة، وهو على أكبر حالة من الاطمئنان، وقتل شهيداً وهو يعيش حالة الاطمئنان، فقد وقع على الأرض عندما رماه أحدهم بسهم في قلبه الشريف، فشخص ببصره نحو السماء وهو يقول:

(بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وآله، إلهي إنك تعلم أنهم يقتلون رجلاً ليس على وجه الأرض إبن بنت نبيٍّ غيره).

وأخرج السهم من قفاه، فانبعث الدم كالميزاب، فأخذ يتلقفه بيديه، فلما امتلأتا رمى به نحو السماء، وهو يقول:

(هون ما نزل بي أنّه بعين الله).

وأخذ الإمام من دمه الشريف فلطخ به وجهه ولحيته، وهو بتلك الهيبة التي تحكي هيبة الأنبياء واندفع يقول:

(هكذا أكون حتى ألقى الله، وجدي رسول الله، وأنا مخضّب بدمي)[١].

---

(١) مقتل الحسين للخوارزمي ج٢، ص٣٤.

وهذه الشجاعة التي تمثلت في الحسين عليه السلام، هي قدرته على ضبط النفس، حتى عندما سقط وهو مضرج بدمه، وهي أساس قوة الشخصية، وقوة الخلق معاً بل وقاعدة الكرامة والكبرياء والإنسانية جميعاً.

وأيّة شخصية تفقد قوة ضبط النفس، فإنها لا تملك نفسها في المواقف الصعبة، والظروف القاهرة، وبالتالي تفقد صفة الشجاعة التي تعني الاستعداد الرجولي والبطولي للمواجهة، وتسيير الخطة المعدة سلفاً لمقاومة عدو لا يضع أي اعتبار لمعاني الإنسانية وقيمها.

صراحة الحسين عليه السلام:

ولعل أكبر مواجهة كانت بين مدرسة الحسين عليه السلام النبوية ومعسكر الإسلام الأموي المتمثل في شخص يزيد، هي صراحته التي انطلق بها منذ اليوم الأول لإعلان ثورته، حيث حدد معالم هذه الانطلاقة بالحد الفاصل حتى بينه وبين شخص يزيد، فالتاريخ يروي أنه كتب يزيد إلى الوليد، وأمره بأخذ البيعة على أهل المدينة عامة، وعلى الحسين خاصة، فبعث الوليد إلى الحسين، فجاءه في ثلاثين نفراً من أهل بيته ومواليه، وجرى بينهما كلام فغضب الحسين عليه السلام ثم أقبل على الوليد فقال:

(أيها الأمير إنّا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف

الملائكة بنا فتح الله وبنا ختم ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر قاتل النفس المحترمة، معلن الفسق، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون، أينا أحق بالبيعة والخلافة)[1].

وقال عليه السلام لمروان لما أشار عليه بالبيعة ليزيد: (إني ناصح فاقبل نصيحتي، فإنها خير لك في دنياك وآخرتك).

قال الحسين: (وما هي)؟

قال يزيد: (آمرك بالبيعة).

فقال الحسين عليه السلام: (وعلى الإسلام السلام، إذ قد بليت الأمة براعٍ مثل يزيد بن معاوية)[2].

ولعل يزيد وأتباع المدرسة اليزيدية لم يفهموا شخصية الحسين عليه السلام، التي امتزجت بروح الرسالة، وتربّت في البيت النبوي، وعاشت وعاصرت كل الأحداث والمراحل التي مرت فيها الرسالة المحمدية، إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه، لذا ينقل لنا الرواة ـ ممن فهم شخصية الحسين عليه السلام، وامتيازها بالصراحة ـ أن الحسين عليه السلام أعتق جارية وتزوجها فكتب إليه معاوية:

(أما بعد فإنه بلغني أنك تزوجت جاريتك وتركت أكفاءك من

---

(١) مقتل الحسين للخوارزمي ج١، ص١٨٤.

(٢) مقتل الحسين للخوارزمي ج١، ص١٨٤.

قريش ممن تستنجبه للولد، وتمجد به في الصهر، فلا لنفسك نظرت، ولا لولدك انتقيت).

فكتب إليه الحسين عليه السلام:

(أما بعد فقد بلغني كتابك وتعييرك إيّاي بأني تزوجت مولاتي، وتركت أكفائي من قريش، فليس فوق رسول الله منتهى في شرف ولا غاية في نفسي، وإنما كانت ملك يميني خرجت عن يدي بأمرِ التمس فيه ثواب الله ثم ارتجعتها على سنة نبيّنا، وقد رفع الله بالإسلام الخسيسة، ووضع عنا به النقيصة، فلا لوم على امرىء إلا في أمر مأثم، وإنما اللوم لوم الجاهلية).

فلما قرأ معاوية كتابه نبذه إلى يزيد فقرأه وقال: (لشد ما فخر عليك الحسين):

قال يزيد: (لا ولكنها ألسنة هاشم الحداد، التي تفلق الصخر، وتغرف من البحر)[1].

وهذه الصراحة هي نفسها التي دعت الإمام الحسين عليه السلام لأن يكون صريحاً مع أصحابه ومع أعدائه، فبالنسبة لأصحابه خاطبهم ليكونوا على بينة من أمرهم، ويتخذوا قرارهم بإرادتهم دون ضغط نفسي، أو تأثير خارجي، وحينها يكون الدافع لموقفهم مع الحسين عليه السلام هو إيمانهم بالله ورسوله وأهل بيته عليهم السلام، ودفاعاً عن

(١) أزهر الآداب للحصري ج١، ص٣٩.

الدين وقيمه، والاستشهاد مع راية الحق التي يحملها الحسين عليه السلام. لذا خاطبهم:

(يا قوم اعلموا أنكم خرجتم معي، لعلمكم أني أقدم على قوم بايعونا بألسنتهم وقلوبهم، وقد انعكس العلم، واستحوذ عليهم الشيطان، فأنساهم ذكر الله، والآن لم يكن لهم مقصد إلا قتلي، وقتل من يجاهد بين يدي، وسبي حريمي بعد سلبهم، وأخشى أنكم لا تعلمون وتستحون، والخداع عندنا أهل البيت محرم، فمن كره منكم فلينصرف، فالليل ستير والسبيل غير خطير، والوقت ليس بهجير، ومن واسانا بنفسه كان معنا في الجنان، نجياً من غضب الرحمان، وقد قال جدي رسول الله صلى الله عليه وآله: ولدي حسين يقتل بطف كربلاء غريباً وحيداً عطشاناً، فمن نصره فقد نصرني، ونصر ولده القائم، ومن نصرنا بلسانه فهو من حزبنا يوم القيامة)[١].

وقد احتلت صراحة الحسين عليه السلام بين أصحابه موقعاً تبين فيه صدق حركته ونهضته التي تحمل كل معاني النبل والإنسانية، فتناولت هذه الكلمة التي أطلقها عدة أمور، منها مفهوم الإرادة الحرة، وأنهم قدموا معه باختيارهم، والذي لا يمتلك إرادته فإنه يتبع هوى نفسه، ويستحوذ عليه الشيطان بعد أن ينسيه ذكر الله، وتجلت الصراحة في بيان المصير المحتوم والبلاء القادم، فوضعهم أمام الحقيقة، دون أن يخفيها عنهم كما يصنع عسكر

(١) ناسخ التواريخ ج٦، ص٦٥.

اليوم، وقادة الجيوش عندما يخفون عن جنودهم مصيرهم، ويطلبون منهم أن ينفذوا الأوامر دون نقاش، ودون معرفة الحقيقة.

فخيَّرهم بين البقاء معه، والاستشهاد بين يديه، والحصول على الجنة ورضى الرب، أو الرحيل عنه، وحدد لهم وقتاً وزماناً ليصلوا إلى مأمنهم دون أن يعتدي عليهم أحد، أو يعترضهم معترض.

تلك صراحته مع أصحابه فكيف كانت صراحته مع أعدائه؟

الإمام الحسين عليه السلام قائد مسيرة وإمام ربّاني منصَّب من السماء فمسيرته لا بد أن تحمل روح التكامل في كل أبعادها الإنسانية، والقيم الأخلاقية، فالحسين عليه السلام روحه هي روح النبي صلى الله عليه وآله، الذي لا يحمل صفة العدوانية حتى على أعدائه الذين ناصبوه وقاتلوه في يوم الطف، فكان معهم صريحاً من أجل نجاتهم، وخلاصهم من عذاب جهنم، إلى درجة أنه بكى عليهم، وقال لهم إنكم تدخلون النار بسببي.

ثم خاطبهم لما حالوا بينه وبين خيامه:

(ويحكم يا شيعة آل أبي سفيان إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم، وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عرباً).

فناداه الشمر:

ما تقول يابن فاطمة؟ فقال:

(أنا الذي أقاتلكم وتقاتلونني، والنساء ليس عليهنَّ جناح، فامنعوا عتاتكم عن التعرض لحرمي ما دمت حياً)[١].

وكما كان الحسين عليه السلام صريحاً مع أصحابه بحيث وضعهم أمام الأمر الواقع والحقيقة، فإنه كان مع أعدائه أكثر صراحة، حيث كانت صراحته أكبر من وقع السيف عليهم، فلقد كان فيها تأنيب للضمير وتذكير بما التزموا به تجاهه، ثم توبيخ لهم على خيانتهم، بحيث إنه لم يكن هناك ثمة أمل فيهم، عندما فضلوا الدنيا على الآخرة إذ خاطبهم عندما ركب فرسه وأخذ مصحفاً ونشره على رأسه ووقف بإزاء القوم وقال:

(يا قوم إن بيني وبينكم كتاب الله وسنة جدي رسول الله صلى الله عليه وآله).

ثم استشهدهم على نفسه المقدسة وما عليه، من سيف النبي، ولامته وعمامته فأجابوه بالتصديق، ولما سألهم عما أقدمهم على قتله؟

قالوا طاعة للأمير عبيد الله بن زياد فقال:

(تبّاً لكم أيتها الجماعة وترحاً، أحين استصرختمونا والهين

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ص٦٧.

فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً قد اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم، بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم، فهلاّ لكم الويلات، تركتمونا والسيف مشيم، والجأش طامن، والرأي لما يستحصف، ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبا، وتداعيتم عليها كتهافت الفراش ثم نقضتموها، فسحقاً لكم يا عبيد الأمة، وشذاذ الأحزاب ونبذة الكتاب، ومحرفي الكلم، وعصبة الإثم، ونفثة الشيطان ومطفئي السنن، أو بحكم هؤلاء تعضدون وعنا تتخاذلون؟)[1].

هذا بعض من صراحة الحسين عليه السلام لأعدائه في يوم عاشوراء حيث أطلعهم على حقيقتهم في تخاذلهم وجبنهم وأنهم عبدة الشيطان والهوى، وأنهم بعيدون عن الدين والإيمان، ومن تكون حقيقته هذه يموت في داخله الضمير وينعدم الوجدان وينسلخ من إنسانيته.

محاولات فاشلة:

من أهم عناصر الشخصية التي تجدها عند الحسين عليه السلام بكل مظاهرها، والتي فاقت في مستواها مستوى الشخصيات هي التغلب على كل الصعاب، وتذليل كل العقبات، حتى أصبحت في

(١) مقتل الحسين للمقرم: ص٢٣٤.

نظره توافه لا حقيقة لها حتى توقفه عن مسيره ومسيرته.

كيف لا يكون كذلك، وقد ارتسم في داخله النبّي ﷺ في طبيعته، والنبي ﷺ في معناه، حتى ملأت هذه الصورة شعاب نفسه، فكان قطعة منه بنص النبي (حسين مني وأنا من حسين)[1].

ولقد كان النّبي يمده من وراء العاطفة كما يمده من وراء النبوة ويغمره بالحب ويسقيه من نبعه الشعور، ليبرز فيه القوة الروحية التي تمده بآثارها في كل موقف ومكان، فتبدو تلك القوة على شفتيه وفي كلامه وفعله، في مواقفه، لتنطق بالحكمة المقدسة، وتفعل ما يفوق عقل الإنسان.

والتغلب على الصعاب مظهر أخذ في البروز في شخصية الحسين عليه السلام، وبدا في موقفه عندما حاول رجالات مكة أن يصدّوه عن الخروج إلى العراق فأبى ووقف حيث هو الموقف الشجاع، متحدياً كل تلك الصعاب، عندما رفض رفضاً قاطعاً البيعة ليزيد.

من رجالات مكة: إبن عباس وعبد الله بن عمر، فبينما الحسين عليه السلام مقبل عليهما إذ حفا لاستقباله والتشرف بخدمته وكانا قد عزما على مغادرة مكة، فقال إبن عمر:

---

(١) ينابيع المودة ج٢، ص٢٠٧، ح٦٠٢، وذخائر العقبى: ص١٣٣، فضائل الحسن والحسين عليهما السلام، وسنن الترمذي ج٥، ص٣٢٤، ب (١٠٩) فضائل الحسن والحسين عليهما السلام، ح٣٨٦٤.

(أبا عبد الله، رحمك الله، اتَّق الله الذي إليه معادك، فقد عرفت من عداوة أهل هذا البيت يعني بني أمية لكم، وقد ولي الناس هذا الرجل يزيد بن معاوية ولست آمن أن يميل الناس إليه؛ لمكان هذه الصفراء والبيضاء فيقتلوك، ويهلك فيك بشر كثير، فإني قد سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(حسين مقتول، ولئن قتلوه وخذلوه، ولم ينصروه، ليخذلنهم الله إلى يوم القيامة).

وأنا أشير عليك أن تدخل في صالح ما دخل فيه الناس، واصبر كما صبرت لمعاوية من قبل، فلعل الله أن يحكم بينك وبين القوم الظالمين).

فقال الحسين عليه السلام: **(أنا أبايع يزيد وأدخل في صلحه؟!! وقد قال النبي ﷺ فيه وفي أبيه ما قال).!!!**

وانبرى ابن عباس فقال له:

(صدقت أبا عبد الله، قال النبي ﷺ في حياته: **(مالي وليزيد لا بارك الله في يزيد وإنه يقتل ولدي، وولد ابنتي الحسين، والذي نفسي بيده لا يقتل ولدي بين ظهراني قوم فلا يمنعونه إلا خالف الله بين قلوبهم وألسنتهم).**

وبكى إبن عباس والحسين، والتفت إليه الحسين قائلاً: **(يابن عباس أتعلم أني ابن بنت رسول الله ﷺ)؟**

فقال ابن عباس:

(اللهم نعم، نعلم ما في الدنيا أحد هو ابن بنت رسول الله غيرك، وإن نصرك لفرض على هذه الأمة كفريضة الصلاة والزكاة التي لا يقبل أحدهما دون الأخرى).

فقال له الحسين عليه السلام:

(يابن عباس، ما تقول في قوم أخرجوا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله من داره، وقراره، ومولده، وحرم رسوله، ومجاورة قبره، ومسجده وموضع مهاجره، فتركوه خائفاً مرعوباً لا يستقر في قرار، ولا يأوي في موطن، يريدون في ذلك قتله، وسفك دمه، وهو لم يشرك بالله ولا اتخذ من دونه ولياً، ولم يتغير عما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله)؟.

وانبرى ابن عباس يؤيد كلامه، ويدعم قوله قائلاً:

(ما أقول فيهم إلا أنهم كفروا بالله ورسوله، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا، وعلى مثل هؤلاء تنزل البطشة الكبرى، وأما أنت يابن رسول الله فإنك رأس الفخار برسول الله صلى الله عليه وآله، فلا تظن يابن بنت رسول الله أن الله غافل عما يفعل الظالمون وأنا أشهد أن من رغب عن مجاورتك، وطمع في محاربتك، ومحاربة نبيك

محمد ﷺ فما له من خلاق..).

وانبرى الإمام الحسين فصدّق قوله قائلاً: (**اللهم نعم**).

وانطلق ابن عباس يظهر الاستعداد للقيام بنصرته قائلاً:

(جعلت فداك يابن بنت رسول الله، كأنك تريدني إلى نفسك، وتريد مني أن أنصرك، والله الذي لا إله إلا هو لو ضربت بين يديك بسيفي هذا بيديّ حتى انخلعا جميعاً من كفي لما كنت ممن وفى من حقك عشر العشر، وها أنا بين يديك مرني بأمرك).

وقطع ابن عمر كلامه، وأقبل على الحسين فقال له:

(مهلاً عما قد عزمت عليه، وارجع من هنا إلى المدينة، وادخل في صلح القوم، ولا تغب عن وطنك، وحرم جدك، رسول الله ﷺ ولا تجعل لهؤلاء الذين لا خلاق لهم على نفسك حجة وسبيلاً، وإن أحببت أن لا تبايع فأنت متروك حتى ترى رأيك، فإن يزيد بن معاوية عسى أن لا يعيش إلاّ قليلاً فيكفيك الله أمره).

وزجره الإمام، وردَّ عليه قوله قائلاً:

(أفٍّ لهذا الكلام أبداً ما دامت السماوات والأرض، أسألك يا عبد الله أنا عندك على خطأ من أمري؟ فإن كنت على خطأ ردني فأنا أخضع، وأسمع وأطيع).

فقال ابن عمر:

(اللهم لا، ولم يكن الله تعالى يجعل ابن بنت رسول الله على خطأ وليس مثلك من طهارته وصفوته من رسول الله ﷺ على مثل يزيد بن معاوية، ولكن أخشى أن يُضرَب وجهك هذا الحسن الجميل بالسيوف، وترى من هذه الأمة ما لا تحب، فارجع معنا إلى المدينة، وإن لم تحب أن تبايع، فلا تبايع أبداً، واقعد في منزلك).

والتفت إليه الإمام فأخبره عن خبث الأمويين، وسوء نواياهم نحوه قائلاً:

(هيهات يابن عمر إن القوم لا يتركوني وإن أصابوني وإن لم يصيبوني فلا يزالون حتى أبايع وأنا كاره أو يقتلوني، أما تعلم يا عبد الله أن من هوان الدنيا على الله تعالى أنه أتى برأس يحيى بن زكريا إلى بغيٍّ من بغايا بني إسرائيل، والرأس ينطق بالحجة عليهم؟! أما تعلم يا أبا عبد الرحمان أن بني إسرائيل كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبياً ثم يجلسون في أسواقهم يبيعون ويشترون كلهم كأنهم لم يصنعوا شيئاً، فلم يعجل الله عليهم ثم أخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر)[1].

هذه المحاورة كشفت عن محاولتهم الفاشلة لصد

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ص٣١٩.

الحسين عليه السلام عن الخروج، وتصميمه على الثورة، وعزمه على مقارعة الباطل المتمثل في يزيد وأتباعه.

ولم يتغلب الحسين على محاولات ما قبل الثورة عن صده عنها، بل تغلب على المحاولات الصعبة التي اعترضته أثناء حركته ونهضته عندما حاول الحر أن يصده، ويجعجع به الطريق، بل حتى في أحلك الظروف الصعبة، وهي يوم العاشر، عندما وقف وحيداً فريداً لا ناصر له ولا معين، وقد عرضت عليه العروض، وأعطي العهود والأمان، فأبى إلا أن يقف متحدياً كل تلك الصعاب، لنصرة دين الله، وإحقاق الحق، وإرجاع الكرامة المهدورة للإنسان.

عظمة الإستهانة:

الاستهانة بالحياة وما فيها رغبة في أمر آخر يفوق تصور البشر ليس بالأمر السهل، الاستهانة بالموت في سبيل عدم الاستهانة بالمقدسات، ذلك ما ظل يراود الحسين عليه السلام عندما رأى استهتار يزيد وقد وصل إلى درجة الاستخفاف بالدين وقيمه.

يحدثنا التاريخ: (أن يزيد عرف بشرب الخمر، واللعب بالكلاب، والتهاون بالدين، وأنه كان يلهو بالنرد، ويتصيد بالفهود)[1].

(١) حياة الحيوان للدميري ج٢، ص٢٧٠.

(وكان صاحب طرب ومنادمة على الشراب، فذات يوم جلس على شرابه، وعن يمينه إبن زياد بعد قتل الحسين عليه السلام فاقبل على ساقيه وقال:

اسقني شربة تروي مشاشي ثم مل فاسق منها ابن زياد
صاحب السر والأمانة عندي ولتسديد مغنمي وجهادي

ثم أمر المغنين فغنوا، وغلب على أصحاب يزيد وعمّاله ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهي، وأظهر الناس شرب الشراب)[١].

(يزيد كان موفر الرغبة في اللهو والقنص والخمر والنساء وكلاب الصيد، حتى كان يلبسها الأساور من الذهب والجلال المنسوجة منه، ويهب لكل كلب عبداً يخدمه، وساس الدولة سياسة مشتقة من شهوات نفسه، وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر، ففي السنة الأولى قتل الحسين بن علي عليه السلام وفي السنة الثانية نهب المدينة وأباحها ثلاثة أيام فقتل سبعمائة من المهاجرين والأنصار، ولم يبق بدري بعد ذلك، وقتل عشرة آلاف من الموالي والعرب والتابعين، وتم افتضاض ألف عذراء)[٢].

هذا الاستهتار والمجون، خط أراد أن يخطه يزيد، وقبله

---

(١) مروج الذهب ج٣، ص٧٧.
(٢) الفخري: ص١٠٣، أخبار الدول: ص١٣٠.

معاوية وبني أمية الذين كانوا يرمون إلى استئصال كل ما يرتبط بالإسلام والنبي محمد ﷺ وأهل بيته الكرام عليهم السلام.

فعندما رأى الحسين عليه السلام ذلك، وازن بين الرغبة في البقاء وبين الواجب، فرأى طريق الواجب أفسح الطريقين وأرضاهما عند الله والناس، حتى لو أدى ذلك إلى الموت والاستشهاد في سبيل نصرة دين الله، إذ قال مقولته المشهورة: (**إني لا أرى الموت إلاّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ برما**).

وقال في خطبته عندما عزم على المسير إلى العراق:

(الحمد لله وما شاء الله ولا قوة إلاّ بالله، خُطّ الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخُيِّر لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء فيملأن مني أكراشاً جوفا وأجربةً سغبا، لا محيص عن يوم خُطَّ بالقلم، رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذ عن رسول الله لحمته بل هي مجموعة له في حضيرة القدس، تقر بهم عينه وينجز لهم وعده، ألا ومن كان فينا باذلاً مهجته، موطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا، فإني راحل مصبحاً إن شاء الله)[١].

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ص٣٣.

فأشرف الحسين إلى الأفق البعيد فرأى العهد الزاهر آخذاً بالتلاشي والانحدار شيئاً فشيئاً، ليفسح المجال لدنيا جديدة وحياة جديدة، لم يعهدها الإسلام ولا رسول الله، بل من صنع البشر، توطد للباطل وتفتح له الطريق.

وإذا بالحسين يرى واجبه الديني والاجتماعي الذي ألزمته به السماء، أن يخرج إلى الموت والفوز بالجنان، فسار بقلته المؤمنة وثبت في معركة الحق والباطل، وسقط صريعاً وارتفعت راية الحق بسقوط الحسين عليه السلام، وهو يردد كلمات الحب في الله ليقبل على ربٍّ قد فتح له أبواب الجنان الواسعة قائلاً:

(صبراً على قضائك، لا إله سواك، يا غياث المستغيثين ليس لي ربٌ سواك ولا معبود غيرك، صبراً على حكمك يا غياث من لا غياث له، يا دائماً لا نفاد له يا محيي الموتى يا قائماً على كل نفس، أحكم بيني وبينهم وأنت خير الحاكمين)[١].

فعلَّمنا الحسين كيف نعتنق المبادىء، وعلَّمنا كيف نعتنق العقيدة وندافع عنها.

كما علَّمنا كيف نحيا وكيف نموت عندما نعشق الشهادة، فرسم لنا بذلك طريق الخلود. فسلام عليه يوم مات ويوم يبعث حيّا.

---

(١) مقتل الحسين للمقرم: ص٣٤٥.

الفصل الرابع

في ظلال الحسين

كيف يمكن لنا أن نعيش في ظلال الحسين عليه السلام؟ وكيف يمكن لنا أن نفهم هذه الشخصية التي طالما حدثنا التاريخ عنها على لسان الأنبياء، وهي نور وجد قبل الخلق وكانت محدقة بالعرش؟

الحياة في ظلال الحسين عليه السلام نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها، نعمة ترتفع بالإنسان إلى مشارف الرقي والسمو والعظمة.

لقد منَّ الله علينا إذ نعيش ذكرى الحسين عليه السلام في كل عام ونكون في ظلال هذه النعمة الإلهية فترة من الزمن نتعرف من خلالها على هذه الشخصية العظيمة التي تحدث عنها الأنبياء قبل خلقها.

إننا عندما نعيش الحسين ذكرى وحدثاً تاريخياً مرَّ بنا فإننا لا ننظر إليه بهذه النظرة العابرة، ولا نقصد بذلك الحدث العبرة دون العَبرة.

إننا نعيش الحسين ونحسُّ فيه ذلك التناسق الجميل بين حركة الإنسان التي يريدها الله وحركة هذا الكون الذي أبدعه الخالق، ثم ننظر من جانب آخر فنرى التخبط الذي تعانيه البشرية في انحرافها عن السنن الكونية، والتصادم بين التعاليم الفاسدة والشريرة التي تملى عليك، وبين فطرتها التي فطرها الله عليها.

إننا نتمنى أن نعيش الحسين لنجعل منه نهجاً ومنهجاً يقودنا للحقائق الكبرى التي تبعث في الحياة أملاً جديداً وروحاً وثابةً وتصوراً كاملاً شاملاً رفيعاً نظيفاً لهذا الوجود.

ولكي يبقى الحسين شاهداً وشهيداً على كل عصر، ما علينا إلا أن نسعى جاهدين للاغتراف من فيض عطاءاته التي خلفها لنا دمه الزاكي، الذي تفوح منه روائح زكية تعطر الوجود على مر السنين والدهور، لتزيح الباطل بعنفه وكل ما يحمل من شوائب عالقة.

الحق كان منهج الحسين، والباطل كان هو العقبة التي تقف أمام منهجه (ألا ترون إلى الحق لا يعمل به وإلى الباطل لا يتناهى عنه؟)[1]. لذلك ما كان من الحسين إلا أن يريق ذلك الدم الطاهر الزكي ليعطر الوجود بالخير والصلاح والإحسان، ومن ثم ليحق الحق الذي هو في منهج الله بناء هذا الوجود.

---

(١) تحف العقول: ص٢٤٥، ومناقب ابن شهرآشوب ج٣، ص٢٢٤.

ونحن إذ نعيش ذكرى الحسين في أيام محرم وصفر، بحيث يتلوّع الفؤاد ويتفتّت الكبد على ما جرى عليه وعلى أهل بيته وأصحابه الكرام، لو تساءلنا مع أنفسنا: ماذا استفدنا من كربلاء الحسين؟ وما هي العبر والدروس التي يمكن أن نخرج بها من هذين الشهرين؟ ويا ترى لو أردنا أن نحمل معنا عبقاً من رائحة الدم الزكي لنعطر بها ضمائرنا وقلوبنا وننير بها دروبنا، فما هي الطريقة المثلى لذلك؟ وما هي السبيل إلى انتخاب أفضل الطرق للاستفادة من دروس عاشوراء كربلاء الحسين عليه السلام؟

أفضل الطرق:

أولاً: إعادة الثقافة الأصيلة للأمة.

لا شك أن واقعنا الإسلامي يرتبط ارتباطاً واضحاً بالواقع العالمي، حيث إننا نعيش في مناطق تجاذب التيارات الفكرية والسياسية والاقتصادية المختلفة، فنحن بحاجة إلى مستوى من الوعي والإدراك للدخول في معترك الصراع الحضاري.

إن أمتنا الإسلامية اليوم مهدّدة في حضارتها وتراثها من خطر الغزو الثقافي والاختراق الفكري، بل إن الوضع الثقافي الدولي الراهن يكرّس استراتيجية ثقافية جديدة جعلت أمتنا تتحول من حالة الاختراق والغزو إلى حالة التبعية الثقافية، وترسيخ هذه الثقافة حيث يقف وراءها ذلك التطور الهائل الذي

عرفته وسائل الإتصال السمعية والبصرية.

فالثقافة إذن هي المنطلق ولا زالت لأمة أرادت أن تبني حضارتها وتعيدها إلى واقعها الصحيح، وبما أن الثقافة الإسلامية كانت ولا تزال المقوم الأساس بل الوحيد لإعادة الأمة إلى جذورها وبالتالي صياغة الشخصية الإسلامية من خلالها، فتحتاج في هذه المرحلة إلى إعادة الثقافة الإسلامية والتضحية من أجل زرعها في العمق الإسلامي وهذا ما عمد إليه الحسين عليه السلام حيث أعطت ملحمته البطولية الشرعية لكل ثورة في أن تستمد عطاءها من ثورته دروساً نقية بعيدة عن الرواسب الجاهلية والأفكار المستوردة.

ولكي نستطيع نحن اليوم أن نزوِّد أمتنا بالطاقة والحيوية والاندفاع والحماس وأن نرجع لها كرامتها وعزها ومجدها التليد، ما علينا إلا أن نسعى لنعطي المنبر الحسيني دوره التاريخي والريادي في بث الثقافة الحسينية النابعة من أرض كربلاء وبطولاتها، ولا شك أن لهذا المنبر تأثيراً مباشراً على قلوب الناس يملكها بوازعه الديني وبتلك الأجواء التي يعيشها الناس في أيام الحسين أيام عاشوراء.

فالمنبر ما هو إلا وسيلة لعبت دوراً كبيراً في التوجيه المباشر لأتباع الحسين عليه السلام، ولا تقتصر إعادة الثقافة إلى الأمة على هذه

الوسيلة فهناك الوسائل المقروءة والمسمغعة والمرئية، فإن لها الدور الكبير والتأثير الخطير، وكلها لا بد أن توظف لإعادة الأمة إلى ثقافتها الأصيلة.

ثانياً: توظيف أهداف ثورة الحسين عليه السلام على صعيد العمل.

قام الحسين وأهل بيته وصحبه الكرام بثورة إلهية ليقدموا لنا ثروة إنسانية ما أعظمها من نهضة، بدأت في مسيرتها بالتوحيد، وبالسير على نهج الله ليختتمها من أجل الله وفي سبيل الله، تلك أدبيات الثورة ونصوصها شاهد حي على نهج الحسين في ثورته، (اللهم أنت متعال المكان، عظيم الجبروت، شديد المحال، غني عن الخلائق، عريض الكبرياء، قادر على ما تشاء، قريب الرحمة، صادق الوعد، سابغ النعمة، حسن البلاء، قريب إذا دعيت، محيط لما خلقت، قابل التوبة لمن تاب إليك، قادر على ما أديت، تدرك ما طلبت، شكوراً إذا شكرت، ذكوراً إذا ذكرت، أدعوك محتاجاً وأرغب إليك فقيراً)(١)، تلك الثروة التي تجسدت في أهداف الحسين، وبقيت هذه الثورة خالدة بأهدافها حيث تجاوزت كل الأطروحات المادية والبشرية وحارت فيها عقول المفكرين.

فأهداف الحسين واضحة للجميع، ووضوحها تجلى في ذلك الخلود الذي به سمت هذه النهضة، فلسنا بحاجة إلا إلى أن نتعلم

---

(١) المزار: ص٣٩٩، وإقبال الأعمال ج١، ص٣١٥.

من الحسين عليه السلام كيف نوظف هذه الأهداف لخدمة أمتنا وكيف نجعل منها بلسماً شافياً لجروحنا التي ما عادت تلتئم بل أخذت بالتوسع. كيف يمكن أن نرتفع ونسمو على الخلافات الإنسانية والصراعات النفسية النابعة من التفكير السطحي والعقيم، وكيف يمكن لنا أن نجرّد أنفسنا من الذاتية المقيتة التي لا تعرف الحب للآخرين ولا تعترف بهم وكأن الخالق أوجدها وحدها في الكون.

إن الطبيعة البشرية لا يمكن إصلاحها بالوعظ المجرّد وحده، فهي كغيرها من ظواهر الكون تجري في نواميس معينه، ولا يمكن التأثير في شيء قبل دراسة ما جبل عليه ذلك الشيء من صفات أصيلة.

وكثيراً ما نرى الوعّاظ يطالبون الناس بمواعظهم أن يغيروا من نفوسهم أشياء دون وعي، وقد أدى هذا بالناس أن يعتادوا سماع المواعظ من غير أن يعيروها آذاناً صاغية.

والغريب أن الواعظين أنفسهم لا يتبعون النصائح التي يعظون الناس بها فهم يقولون للناس نظفوا قلوبكم من أدران الحسد والشهوة والأنانية بينما نجدهم أكثر الناس حسداً وشهوة وأنانية.

فالواعظ والخطيب ورجل الدين حين يعظون الناس باتّباع المثل العليا وتطهير نفوسهم من أدران الحسد والأنانية كأنما لم يقرأوا قول الله عزّ وجلّ:

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[1].

ثورة الحسين عليه السلام، أرادت أن تقول لمجموعة من هذا الطراز الخبيث الذي نما تفكيره على الأنا والحسد وترعرع في زوايا مجالس البطّالين الذين لا شغل لهم ولا عمل سوى الكلام والحديث عن الناس وعلى قيادتهم الدينية العاملة ورجالاتهم الفاعلة.

لا بد أن نقف وقفة متأمل عند هذه الثورة الإلهية في كيفية توظيف هذه الأهداف الحسينية على واقعنا المعاش حتى لا نكون كعمر بن سعد وعبد الله بن عمر لا نملك استقلالية اتخاذ القرار ولا حرية التفكير ولا إرادة الرجال:

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[2].

(وكنتم لا تخافون المعاد فكونوا أحراراً في دنياكم هذه وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عرباً كما تزعمون)[3].

وإن كنا كذلك فسوف نخسر الدنيا والآخرة ومصيرنا يكون إلى نار جهنم.

---

(١) سورة الصف، الآية: ٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٣.

(٣) كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٥٠٤، ولواعج الأشجان: ١٨٥، ومثله في اللهوف في قتلى الطفوف: ٧١.

توظيف أهداف الثورة:

ولا يمكننا أن نوظف أهداف ثورة الإمام الحسين عليه السلام على هذا الواقع إلا عبر النقاط الثلاث الآتية:

أولاً: الوعظ بعيداً عن خلق الصراعات النفسية:

حيث إنه يكون ذا ضرر بليغ على شخصية الإنسان إذا كان معاكساً لقيم الدين والنهضة الحسينية، فإذا ذهب المستمع إلى الحسينية أو المسجد، وأخذ يسمع ذلك الواعظ الذي يحثه على الوحدة والتآلف ونبذ الفرقة والنزاعات، بينما يرى على الوحدة والتآلف ونبذ الفرقة والنزاعات، بينما يرى المستمع نفسه أن ذلك الداعية أو الواعظ يمارس ميدانياً خلاف ذلك، فإن هذا الوضع يؤدي إلى تكوين أزمة نفسية قد تؤدي إلى الارتداد عن الدين.

وقد لا تكون الممارسة مباشرة ولكنها قد تكون تحت أغطية مختلفة، وهذا ما يشكل خطراً كبيراً على وحدة الصف والمجتمع، وقد يكون الغطاء نصاً قرآنياً أو حديثاً مطهراً، فهم بشكل خاطىء أو فتوى استخدمت جهلاً لأغراض معينة دونما وعي وإدراك لما تحدثه من فرقة بين الناس وبدون معرفة أن ذلك رأي لا يقصد منه إلا الكشف عما توصل إليه ذلك الفقيه.

ينتاب النفوس عادة في المراحل التاريخية الحرجة، صراعاً بين عاملين متناقضين، عامل المبادىء والقيم العليا من جهة،

وعامل الإغراء والطموح من جهة أخرى، ولعل المرحلة التي قتل فيها الحسين بن علي عليه السلام تمثل هذا الصراع النفسي الخطير.

وقد حدثنا المؤرخون أن الكثيرين من الذين خرجوا لقتال الإمام الحسين كانوا يعانون شيئاً من هذا الصراع النفسي، وظلوا أثناء المعركة يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى، وكذلك كان الصراع متمثلاً عند الإمام الحسين حينما وصفهم الفرزدق بقوله:

(قلوبهم معك وسيوفهم عليك)[1].

وحالة الصراع النفسي التي يخلقها هذا الطراز من الوعّاظ أشد خطراً على المجتمع حتى من السيف، لأن الإنسان حين يسمع الواعظ أو الخطيب ومن يمثل الدين يتحدث عن الحسين بينما يعاكس كل ما يقوله ميدانياً، فإن ذلك لا يسمح بتوظيف هذه الأهداف على الواقع. أي أن هذا الوضع المتناقض يؤدي إلى صراع نفسي من ناحية وإلى قلق اجتماعي من الناحية الأخرى.

ثانياً: إصلاح المجتمع الغاية الأولى.

الإمام الحسين عليه السلام أعلن في بيانه أنه خرج لإصلاح الأمة، أي إرجاع الأوضاع الشاذة إلى وضعها الطبيعي، ولم تكن رسالته هذه موجهة إلى ذلك الجيل أو تلك الأمة، بل هي رسالة منبثقة من رسالات الأنبياء، التي كانت تدعو المجتمعات لإخراجها من

---

(١) كلمات الإمام الحسين: ص٣٣٨.

ظلمات الجهل إلى نور العقل، فكانت نهضته امتداداً لرسالاتهم عليهم السلام، ودعوة إلى كل الأجيال والأمم إلى يوم يبعثون.

حيث إن هناك طريقين لكل إنسان لا ثالث لهما، طريق الهدى الذي يؤدي به إلى رضوان الله وجناته، والذي يمثله الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، وطريق الضلال الذي يقود إلى الجحيم، ولكل طريق قادة وأئمة، فهناك أئمة هدى وقادة إلى طريق الله وهناك قادة وأئمة للكفر والضلال، فمن يريد أن يتخذ طريق الإصلاح لا المصالح، عليه أن يتخذ نهج الإمام الحسين عليه السلام وأن يعبر عن ذلك بالانتماء إليه، فالإمام الحسين إنما نهض وقاوم يزيد وأراق دمه من أجل إصلاح ذلك المجتمع وإرجاعه إلى دينه وإلى رشده.

ترى ماذا يجب علينا نحن اليوم؟

ألا يجب علينا أن نحمل نفس الهم الذي حمله الحسين عليه السلام، فبدل أن نعيش الصراعات الجانبية والهامشية، يجب علينا أن نوظف هذه الأهداف ومنها إصلاح المجتمع.

نظرة عابرة على أجواء الحرية التي نعيشها اليوم، التي بدل أن نوظفها لخدمة الدين والوطن والمواطن نجد أنفسنا منساقين وراء ضرب بعضنا البعض وكيل التهم والسباب والتسقيط وما إلى ذلك مما لا يرضاه الإمام الحسين عليه السلام.

ثالثاً: ضرورة تطوير الحديث عن ثورة الإمام الحسين عليه السلام.

لم تكن ثورة الإمام الحسين عليه السلام قبلية أو عشائرية أو طائفية أو إقليمية أو قومية، بل كانت ثورة إلهية أممية من أجل كرامة الإنسان وسعادته، وهذه هي حقيقة ثورة الإمام الحسين عليه السلام.

إذا كان ذلك، كان لا بد من سعي حثيث وجاد من أجل توسيع دائرة هذه الأهداف على صعيد العلم، لكل الأمم والمجتمعات، لكي يتعرفوا على حقيقة هذه الثورة الإلهية، عبر الحديث المسؤول الذي يحدث تغيراً جذرياً في النفوس، ولا يتم ذلك إلا إذا ربطنا قضية الحسين عليه السلام بالواقع المعاش، وحاولنا أن نجعل من تلك الحادثة التاريخية رموزاً ودروساً لما تمر فيه الأمة الإسلامية من أحداث.

وهكذا فإننا إذا فصلنا الواقعية التاريخية عما يحدث في الأمة، فإن ذلك يعني الطلاق بين الحقيقة والواقع وبين القيم والتطبيق العملي لها.

إذن لا بد من الحديث بصورة تحمل بداخلها الشعور بالمسؤولية التغييرية المرتبطة بالواقع، وأن تحاكي الوضع الذي يعيشه المسلم اليوم في كل أرجاء العالم الإسلامي.

الفصل الخامس

خطاب متميز

استقطاب

هل كانت ثورة الحسين عليه السلام مجرد معركة بين شخصين، أو حادثة منعزلة في التاريخ، أو في المجتمع؟ أو هي مجرد قتل إنسان ما في مكان ما في هذا العالم؟.

لو كانت كذلك لما كانت تَخلد هذه الثورة على مرّ القرون والدهور، يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل، في تصاعدٍ فكريٍّ وثقافيٍّ، لتبني في الذاكرة رمزاً لصدق المبدأ والعقيدة، ومثلاً للتضحية والفداء.

استطاعت ثورة الإمام الحسين عليه السلام وإلى يومنا هذا أن تستقطب كل قطاعات المجتمعات الإنسانية، ليقفوا أمامها بالحيرة والذهول عندما يقرأون أدبياتها وكل مفرداتها، فيجدون أنها أشعلت وجداً مستمراً من النضال والتضحية في سبيل المبدأ، فكونت حزناً ثورياً لا ينضب.

استقطبت كل أحرار العالم بكل مستوياتهم، فكما أنها استقطبت الثوار فإنها كذلك استقطبت المفكرين والمثقفين، وأصحاب الفن، وأصحاب الشهادات الأكاديمية العليا بكل تخصصاتهم.

إنها ثورة أكدت الكرامة الإنسانية دون النظر إلى هوية الإنسان وانتمائه، فاتخذت الموقف الشرعي للانطلاقة بهذه المسيرة من أجل هذا الإنسان.

وقد ظهر ذلك في خطابات الحسين عليه السلام التي كان يوجهها في الحقيقة لذلك الإنسان، ليأخذ بيده إلى طريق النجاة والخلاص، حتى تحولت هذه الخطابات، وهذه الكلمات التي انبعثت من الحسين عليه السلام إلى مثل وقيم، وتحولت تلك الثورة التي مثلت التحدي والرفض لقيم الباطل والشر إلى نموذج لمشروع حضاري نهضوي، يتقدم بالأمة، ويرتفع بها إلى مستوى الحضارات الراقية.

لقد أوجدت هذه الثورة الحسينية على الصعيد السياسي والاجتماعي، خطاباً خاصّاً متميزاً على كل أنواع الخطابات الدينية الأخرى، حيث انطلقت من وعي مؤطَّرٍ بآفاق فكرية وفقهية وتاريخية ارتبطت بالدين أكثر مما ارتبطت بالواقع الإجتماعي للفرد والجماعة.

العزاء الحسيني:

لسنا بصدد دراسة تاريخية نقدمها حول تاريخ العزاء الحسيني، هذا الخطاب الذي كان نتاجاً طبيعياً لنهضة الحسين عليه السلام، ولسنا بصدد أن نفلسف هذا الخطاب، حتى نخضعه لمنهجية اجتماعية، ودراسة موسعة، تساعدنا على التوصل إلى رؤية تاريخية لجذور العزاء الحسيني.

يكفينا في ذلك ما تسالم عليه الفقهاء، وصرحوا به في مجالسهم العلمية وكتبهم الفقهية[1] بجواز إظهار مأساة الحسين عليه السلام بكل الوسائل المشروعة، التي تظهر هذه المأساة إلى العالم لتبين لهم حقيقة الصراع الذي لا يزال مستمراً إلى يوم يبعثون، بين المبدأ الحسيني الذي تمثل في مدرسة الحسين النبوية، وبين الخط اليزيدي الذي تمثل في يزيد الجاهلي.

ولقد أصبح العزاء الحسيني يشكل خطاباً له ثقافته الخاصة به، بل له فقهه الخاص به، بحيث لا يمكن التقليل من شأنه فأصبح تعبيراً واضحاً وصريحاً عن تلك القيم والمثل التي نهض من أجلها الحسين عليه السلام.

(١) يراجع بهذا الصدد كتاب الشعائر الحسينية العقائدية عبر التاريخ ٩٢: ١١٥. لمؤلفه محمد عبد الرسول البلاغي.

مميزات حسينية:

لقد تميز خطاب العزاء الحسيني بمميزات تختلف كثيراً عن الخطابات الدينية الأخرى، مما ترك أثراً كبيراً على الحركة الدينية وعلى انتشار الإسلام الصحيح الناصع والبعيد عن الخنوع والتخاذل والفكر المتقوقع على نفسه، ولذا قيل: (الإسلام محمدي الوجود، حسيني البقاء).

ألم يقل رسول الله ﷺ قبل ذلك:

(الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة)[١].

فكيف لا يكون للحسين ونهضته تأثير على حركة الإسلام، وقد اعتبر النبي ﷺ، أن الطريق للهداية هو التمسك بالحسين عليه السلام، والنجاة هو الركوب في سفينته.

أمل وألم:

من الدوافع الأساسية لهذا العزاء الحسيني، كونه خطاباً شعبياً يشكل علاقة قائمة بين الألم والأمل.

أمل ارتبط بشخصية الحسين باعتباره منقذاً إلهياً، ومخلصاً للبشرية من كل مآسيها، وألم من جهة استشهاده في كربلاء، وتضحيته بنفسه حتى جاد بدمه، وكل ما يملك في سبيل تحقيق ذلك الأمل.

---

(١) مدينة المعاجز ج٤، ص٥٢.

فالحسين عليه السلام ثار من أجل الحق والعدالة وتثبيت العقيدة والوقوف أمام الظلم والاستبداد والتخلص من حكم يزيد، وبالتالي إنقاذ المسلمين.

هذا الاعتقاد يعرض شخصية الحسين عليه السلام كمنقذ لهذه الأمة الإسلامية، ومدافع عنها، ومحام عن شريعتها، فحيث لا يستقيم الإسلام ولا يحفظ القرآن إلا بشهادته عليه السلام تجده عليه السلام يندفع اندفاعاً سماوياً ربانياً ليضحّي بنفسه وأهله وأنصاره.

وقد أخبر جبرائيل رسول الله باستشهاد الحسين، ووصف له مقتله، ومصرعه في كربلاء.

فعن المفيد بإسناده عن أم سلمة أنها قالت:

(خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من عندنا ذات ليلة، فغاب عنا طويلاً ثم جاءنا وهو أشعث أغبر ويده مضمومة، فقلت له: يا رسول الله ما لي أراك شعثاً مغبراً؟ فقال: أسري بي في هذا الوقت إلى موضع من العراق يقال له كربلاء، فرأيت فيه مصرع الحسين ابني وجماعة من ولدي وأهل بيتي، لم أزل القط دماءهم فها هي في يدي، وبسطها إليّ فقال: خذيها واحتفظي بها، فأخذتها فإذا هي شبه تراب أحمر فوضعته في قارورة، وشددت رأسها، واحتفظت بها، إلى يوم مقتل الحسين فإذا هي دم عبيط)[1].

(١) الإرشاد ج٢، ص٢٥٠.

وهكذا قد أخبر النبي ﷺ، مرات عديدة بأن الحسين عليه السلام سوف، يقتل في كربلاء، ويضحّي بنفسه من أجل إنقاذ دين جده، وإرجاع كرامة هذا الإنسان.

ولم تقتصر فكرة الإنقاذ عند هذا الحد في الفكر الشيعي وأدبيات الخطاب الحسيني، بل تجاوزت ذلك الحد والاعتقاد إلى مفهوم الشفاعة، الذي لا تجده إلا عند النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام فمن تمسك بهم وسار على نهجهم وركب في سفينتهم فإنّه ينجو من عذاب الآخرة.

فالحسين لم يكن أملاً في الدنيا لشيعته فقط بل هو أمل لهم في الآخرة ليكون لهم شفيعاً.

إن مفهوم الشفاعة الذي يعتقد به أتباع مذهب أهل البيت هو طريق واضح لحامليه ـ من أجل إنقاذهم يوم القيامة ـ عن طريق الولاء الحقيقي والخالص لهم، ولا يمكن أن نفصل مفهوم الشفاعة عن مفهوم الولاية لهم.

الانتماء الحقيقي:

والانتماء لأهل البيت عليهم السلام لا يكون إلا على أحد هذه الأنحاء الثلاثة:

١ ـ الانتماء السياسي:

فمن ينتمي لأهل البيت عليهم السلام لا بد له أن يكون مع جبهة

الحق، رافضاً لجبهة الباطل، لكي يجسد حقيقة الانتماء.

٢ ـ الانتماء الاجتماعي:

هذا الانتماء يدفع الموالي لهم لأن تذوب شخصيته في بوتقة فكرهم، وأن يعيش الحالة الاجتماعية لأمته، فيشاركهم همومهم وأفراحهم وأحزانهم، ويتحمل مسؤوليته الدينية، ووظيفته الاجتماعية، وواجبه المقدس تجاه مجتمعه.

٣ ـ الانتماء القلبي:

ولا يمكن أن تكتمل الولاية، ويتحقق مصداق الشفاعة لهم عليهم السلام إلا بحبهم الصادق والتعبير عن ذلك الحب بذكرهم، وذكر مآثرهم وبطولاتهم وتضحياتهم من أجل رفع راية الإسلام، عبر المحافل ومجالس الذكر والندوات والاحتفالات بذكرى مولدهم.

والحب فريضة فرضها الله على المسلمين لقوله تعالى:

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1].

فإذا كانت مودتهم فرضاً من الله عزّ وجلّ، فعلينا أن نتبعهم لتحقيق هذه المودة القلبية، ولا يكون ذلك إلا باتباعهم، والسير على نهجهم حينها يكون الإمام شفيعاً لشيعته ومحبيه يوم القيامة.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

بكاء وحزن جماعي:

البكاء هو حالة تعبير عن حزن وألم بفقد عزيز يحبه الناس، كما ويشكل حالة تنفيس عما في الصدر من كرب وكدر لذلك الإنسان صاحب العزاء والمصيبة.

وليس هناك من عزيز ـ في نظر الشيعة ـ أعز من الحسين عليه السلام عند رسول الله صلى الله عليه وآله؛ ولذا وردت روايات كثيرة جداً تحث على البكاء عليه وذرف الدموع، ولاعتبر شرطاً من شروط المواساة لما أصاب الحسين وأهل بيته في كربلاء، في تلك المأساة الأليمة، وما واجهوه من ظلم واضطهاد.

ولا يمكن لأي شيعي محب للإمام الحسين عليه السلام إلا أن يبكي عليه؛ لأن قلب المؤمن الشيعي قبر حي لمولاه الحسين، بل هو قبر حقيقي لجسد الحسين عليه السلام المعفر بالتراب.

إن كل محب لأهل البيت، يشعر بأن من الواجب عليه، أن يذرف على الأقل ولو دمعة واحدة على الحسين خلال حياته لأنه يعتقد أن هذه القطرة التي يذرفها سوف تنجيه من النار[١].

لذلك ارتبط مفهوم البكاء والحزن على سيد الشهداء بمفهوم الشفاعة، فأصبح البكاء حالة تذكّر الشيعي بمصرع الحسين عليه السلام وأهل بيته.

---

(١) المجالس الفاخرة: ص٢٠.

الجزع والبكاء يكره إلا على الحسين عليه السلام.

فعن الصادق عليه السلام أنه قال:

(إن البكاء والجزع مكروه للعبد في كل جزع ما خلا البكاء على الحسين بن علي فإنّه فيه مأجور)[١].

وهذا التركيز والحث على البكاء والجزع على الحسين إنما هو من أجل تقوية الارتباط به وبنهجه.

فعن الباقر عليه السلام قال:

(أيما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين دمعة حتى تسيل على خده بوّأه الله بها في الجنة غرفاً يسكنها أحقاباً)[٢].

وعن الصادق عليه السلام قال:

(إن الحسين ينظر إلى من يبكيه، فيستغفر له، ويسأل أباه الاستغفار له، ويقول له: أيها الباكي لو علمت ما أعد الله لك لفرحت أكثر مما حزنت)[٣].

فالبكاء هو طريق للشفاعة والنجاة يوم القيامة، ذلك إذا فهمنا حقيقة الشفاعة والولاية.

---

(١) حول البكاء على الحسين عليه السلام: ص١١٢.
(٢) حول البكاء على الحسين عليه السلام: ص١١٢.
(٣) المصدر السابق نفسه.

والبكاء تعبير عن مدى الحب والولاء للحسين عليه السلام، فهو ليس فرضاً إسلامياً، ولا واجباً دينياً أو شرعياً، ولا ركناً من أركان التشيع، بل هو ظاهرة لتجسيد حالة التأسي بالنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته الذين بكوا عليه، وطلبوا من محبيهم نصب المآتم والمحافل والمجالس لذكر الحسين، والبكاء عليه، وربطوا ذلك بالأجر والثواب الذي سوف يحصل عليه المؤمن في اليوم الآخر.

وليس بالبعيد أبداً، أن يندب كل شيعي تأسياً بالنبي صلى الله عليه وآله؛ لأن ما حدث في كربلاء بكته الطيور والوحوش في البر وبكاه المسلم وغير المسلم.

بقيت مأساة الحسين حية في النفوس عبر البكاء، فكان هذا الحزن لا ينقضي أبداً كما قال الصادق عليه السلام:

(إن لقتل جدي الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تنقضي أبدا)[1].

ومن هنا يبدو الأمر جلياً وواضحاً، أن أحد أهداف العزاء الحسيني هو البكاء على الحسين وإثارة المؤمنين، واستدرار دموعهم الرقيقة، لكي لا تُنسى قضية الحسين عليه السلام.

اتخذ البكاء على الحسين طابعاً جماعياً، كالمسيرات العاشورائية، فأصبحت هذه المناحة الكربلائية لا تتم إلا عبر تلك

---

(١) تقدم ذكره في ص٢٢ من هذا الكتاب فراجع.

المجالس التي يحضرها شيعة أهل البيت، كما دعاهم الأئمة إلى ذلك، حيث حثّوهم على إحياء أمرهم عبر هذه المجالس الجماعية، وإليك بعض النصوص التي تدلك على الحزن والبكاء الجماعي وأنه هو المطلوب.

في خبر ابن خارجة قال كنا عند الصادق عليه السلام فذكرنا الحسين ابن علي، على قاتله لعنة الله، فبكى الصادق عليه السلام وبكينا قال ثم رفع رأسه فقال: قال الحسين عليه السلام **(أنا قتيل العبرة لا يذكرني مؤمن إلا بكى)**[1].

وروي عن الصادق أنه إذا هلَّ هلال عاشوراء، اشتدَّ حزنه، وعظم بكاؤه على مصاب جدِّهِ الحسين عليه السلام، والناس يأتون إليه من كل جانب ومكان يعزونه بالحسين، وينوحون معه على مصاب الحسين[2].

وفي خبر دعبل عندما دخل على الرضا عليه السلام في أيام عاشوراء، إذ نهض الإمام وضرب ستراً بينه وبين حرمه وأجلس أهل بيته من وراء الستر ليبكوا على مصاب الحسين عليه السلام[3].

البكاء والحزن الجماعي أو المناحة الكربلائية، ذات وظيفة تاريخية، وليست مجرد طقوس تجري ممارستها بحكم العادة أو

(١) كامل الزيارات: ص٨٠.
(٢) المنتخب: ص٣٩.
(٣) بحار الأنوار ج٤٥، ص٢٥٧، ح١٥.

التقليد، وليست شعائر دينية مستمرة بفعل قوة الدفع العاطفي والروحي فقط، بل هي أكبر من ذلك بكثير، حيث إن هناك دوافع دينية وبواعث تقف خلف هذه الاستمرارية التي بدأت وتواصلت منذ أول يوم قتل فيه الحسين عليه السلام، ولا تبدو هذه الاستمرارية الجماعية لهذه المناحة والحزن منفصلة عن تلك الدوافع الدينية.

البكاء والحزن، تعبير واضح عن فزع جماعي من صورة بشعة، أو موقف جائر، أو سلطة ظالمة، يستحيل عليها أن تعدل عما هي عليه من ظلم أو تغير من سلوكها، فجاءت شهادة الحسين عليه السلام لتؤسس لحزن جماعي ذي وظيفة تاريخية، وذلك عندما تستذكر السلطة التي لا تقيم وزناً للفرد مهما كانت مكانته، حتى ولو كان حفيد النبي محمد صلى الله عليه وآله وهي مستعدة من دون حياء أو خوف لسحقه ولتدميره، إلى درجة قطع رأسه وفصله عن جسده وسبي عائلته، فإن هذا التذكير في كل عام يدفع المؤمن ليتذكر السلطة التي يعيش في كنفها كمواطن عادي قابل للسحق ولفصل رأسه عن جسده، عندما تتحول تلك السلطة إلى سلطة فاقدة لأدنى قيم الإنسانية ومبادىء الديانات السماوية.

(إذن البكاء على الشهيد مشاركة له في ملحمته وتجاوباً مع روحه وانسياقاً وراء نشاطه وحركته).

والإمام الحسين عليه السلام بشخصيته الجليلة وشهادته البطولية

ملك قلوب ومشاعر مئات الملايين من الناس، ولو أن الخطباء استثمروا هذا المخزون الهائل والنفيس من المشاعر والمعنويات بشكل صحيح، لأجل إيجاد حالة من الانسجام والتناسق والتناغم بين أرواح هذه الملايين والروح الحسينية الكبيرة؛ لأصلحوا قطاعاً مهماً من العالم[1].

رفض واحتجاج

إن لثورة الحسين عليه السلام أدبيات خاصة بها، كما أن هناك مفردات ذات عمق سياسي واجتماعي انعكست على العزاء الحسيني، وحوّلته إلى وسيلة من وسائل الرفض والمقاومة والاحتجاج لكل أنواع الظلم والاضطهاد.

هذه الأدبيات والمفردات تحمل في داخلها أساليب وأشكال الرفض والاحتجاج العلنية، التي نراها في الحركات الاجتماعية والسياسية.

فعندما تستمع إلى الحسين أو تقرأ كلماته التي منها:

(هيهات منا الذلة)[2].

(والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أفر فرار العبيد)[3].

---

(١) الشهيد: ص١٢٤.

(٢) كلمات الإمام الحسين: ص١٣.

(٣) مناقب ابن شهرآشوب ج٣، ص٢٢٤.

(خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة)[1].

والكثير منها التي قيلت في كربلاء على لسانه ولسان أهل بيته وأصحابه، فإنها تنير دروب المقهورين والمظلومين وتكون لهم رسالة حق وصدق لمقاومتهم، وتعطيهم الثبات على ما هم عليه من حق، وتكون لهم شعلة وهاجة في وجدانهم.

ففي هذه المناسبات العاشورائية، يتحول العزاء ومواكبه إلى فرص مناسبة لعرض حالة التذمر والغضب والظلم والاضطهاد، وبالخصوص عندما تكون هناك فسحة من الحرية فيبدأ الخطباء والشعراء بنقد الأوضاع السياسية والاجتماعية السيئة، وفي الغالب تتحول حالة النقد إلى طريقة المقارنة بين الأنظمة القائمة والنظام اليزيدي الذي أقدم على قتل الحسين عليه السلام.

وبهذا يصبح العزاء الحسيني يحمل وظيفة سياسية واجتماعية كبيرة إلى جانب أهدافه الأخرى التي تتجاوز الدمعة واللطم والحضور في المآتم، إلى خطاب يعبر عن المشاعر والطموحات التي يعيشها المواطن في بلده، وذلك عندما يوجه انتقاداته عبر ذلك الخطاب إلى النظام القائم ليغير من أوضاعه السياسية ومستواه المعيشي إلى الأحسن.

---

(١) مقتل الحسين للخوارزمي ج٢، ص٥، في مقتل الحسين عليه السلام.

توظيف الخطاب الحسيني:

عملية توظيف الخطاب الحسيني، باعتباره أحد الخطابات الدينية المتميزة، لا بد أن تأخذ طابعاً يرقى بها إلى مستوى الخطابات الثقافية، التي تقوم بعملية البناء في داخل المجتمع كي لا تكون مجرد شعارات فارغة، ومسيرات لا تعمل على عملية التوعية والتثقيف، فالشعائر الحسينية بما تحمل من ممارسات لا بد لها أن تكون منطلقة من قواعد فقهية وأدلة شرعية بما تتوافق ومستوى العقيدة الإسلامية، وبما أن هذه الشعائر التي تشكل عمد الخطاب الحسيني لها أهداف والتي منها:

١ ـ توجيه انتباه الناس إلى أهمية هذه القضية.

٢ ـ إظهار مظلومية الحسين في كربلاء.

٣ ـ بيان أهداف هذه الثورة إلى الناس من خلال هذا العرض.

٤ ـ تعليم الناس على الاقتداء بشخصية الحسين عليه السلام وأهل بيته وصحبه، عبر بيان مواقفهم وبطولاتهم وبيان روائعهم وأفكارهم من خلال مقولاتهم.

وهناك الكثير من الأهداف التي نحن لسنا بصددها الآن، هذه الأهداف وهذه الشعارات والرؤى والأفكار لهذه الثورة تحتاج إلى توظيف حتى لا تفقد محتواها، فتظل في إطار الطقوس الفارغة

دون أن تحمل أدنى المعاني لقيم وأهداف الثورة الحسينية، إننا بحاجة إلى توظيف هذا الخطاب الحسيني في عدة أمور:

أولاً: إثبات هويتنا الضائعة.

ثانياً: التأكيد من خلاله على عظمة مبادىء إسلامنا.

ثالثاً: اكتشاف طاقاتنا وكفاءاتنا التي نمتلكها حتى نستطيع توظيفها في المجالات الاجتماعية المختلفة.

رابعاً: إن الخطاب الحسيني له القدرة على صنع الكثير على الصعيد السياسي والاجتماعي في المنحى التغييري لأوضاع الأمة ومشاكلها.

خامساً: إصدار برامج مدروسة ومقننة تقوم بتفعيل قضية الحسين، وتحويلها إلى خطاب يحاكي الواقع، ليرفع من مستواه عبر تلك البرامج، التي لا بد أن يقوم عليها علماء ومفكرو هذه الأمة.

ولا شك أن هناك الكثير من الخطوات التي تحتاج إلى التفكير فيها، والعمل عليها، وإقرارها من قبل الباحثين والعلماء والقائمين على هذه الشعائر.

الفصل السادس

دعوى فارغة

في الحقيقة لا بد لنا من أن نتعاطى مع قضية الإمام الحسين عليه السلام وثورته من عدة أبعاد حتى نستطيع أن نجدد الاستثمار والاستفادة منها بشكل مستمر عاماً بعد عامٍ وذلك يتأتى من خلال:

أولاً: أن نرتفع إلى مستوى قضية الحسين عليه السلام وشخصيته حتى نستطيع أن نستثمر هذه الذكرى استثماراً جديداً، ولن نرتفع إلى ذلك المستوى ما لم نحقق معنى الشجاعة الحسينية التي تعني الإقدام ومقاومة الإنحراف على الصعيدين الفردي والإجتماعي.

إن المشكلة الحقيقية التي ما تزال موجودة في العالم هي مشكلة الانحرافات السلوكية والحضارية، وإن أغلب المشاكل التي نعاني منها هي الانحرافات النفسية بالإضافة إلى الأمراض الاجتماعية في جميع مجالات الحياة.

نحن بحاجة إلى شجاعة كشجاعة الحسين عليه السلام تحقق انتفاضة في داخل النفس الإنسانية لإرجاعها إلى الطريق السوي، وبحاجة إلى قرار شجاع يعبر عن مصداقية واقعية نابعة من إيمان صادق يحقق معاني الرجولة والإقدام في المجتمع، فالأمة بحاجة ـ بالتأكيد ـ إلى موعظة ونصيحة، وبالتالي تفجير هذه النصيحة في ضمير الأمة، وهذا ما فعله الإمام عليه السلام، حينما قام بعملية شجاعة هزَّ بها ضمير الأمة، لكي يهدم الانحراف في داخل المجتمع وداخل النفس البشرية.

ثانياً: أن نرتفع إلى مستوى فهم الحياة، فإن الكثير من المفردات قد تغيرت في كل مجالات الحياة، وعلى كل الأصعدة والمستويات، فإننا لا نستطيع أن نستبق الزمن ونتقدم إلى الأمام لأخذ زمام المبادرة في الحياة ما لم نفهم مداخل ومخارج الحياة، ونحاول أن نختصر المسافات الزمنية من أجل الوصول للنجاح والانتصار.

وفهم الحياة يحتاج إلى نهج، وليس هناك غير النهج الحسيني الذي يحمل في داخله السنن الإلهية، وقد جسدت واقعة الطف هذه السنن، فكلما مرَّ الزمان اكتشفنا شيئاً جديداً في هذه الثورة، فكان كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء.

فعلينا إذن أن نحتفظ بواقعة الطف في واقعنا ونقوم بدراسة

كل مفرداتها حتى نستوحي منها الكثير من المفاهيم والأفكار.

عاشوراء توحيد صفوف الأمة:

نهضة الحسين عليه السلام حملت في داخلها قيماً وحدوية ورصّاً لصفوف الأمة ضمن منهج واحد، جعلها في بوتقة منطلقة من القرآن دستوراً؛ ولذا لا بد أولاً من أن نعرف الحسين عليه السلام، ومن أجل ماذا ضحى؟ وبعدها يجب أن نتعرف على أهداف ثورته.

وبمعرفتنا لشخصية الحسين عليه السلام وأبعادها الربانية ومعرفة أهداف هذه الثورة الجلية والواضحة لكل عاشق للحسين، لا أظن أن أحداً لا يريد أن يتحلى بهذه الأهداف وينضوي تحت رايتها، والتي هي راية الحسين عليه السلام.

ولا شك أننا نسعى كلنا على صعيد الشعارات في سبيل التوحيد، لكننا لا نجد ذلك على الصعيد العملي، ولعل السبب يرجع لعدم فهمنا الواقعي للحسين عليه السلام أو التجسيد الحقيقي لأهداف ثورته، وإذا كنا فعلاً نسعى لرص الصفوف وتوحيد الكلمة فعلينا:

١ ـ أن نطهِّر أنفسنا من كل الأحقاد والرذائل، والضغائن حتى لا نستسلم لهوى النفس وضغوط الأهواء والشهوات.

٢ ـ أن نلتزم بمنهج أهل البيت عليهم السلام في التحلي بالفضيلة

والأخلاق الحسنة التي تجعلنا نتغاضى عن بعضنا البعض وتكون القيم الأخلاقية هي السائدة فينا حتى ترتفع المشاحنات والعداوات.

٣ ـ أن نتمسك بالحسين عليه السلام فهو الضمانة الوحيدة التي تجعل القلوب والأفئدة كلها تهفو إليه.

فلنحاول إذن أن نستفيد من أجواء عاشوراء في سبيل إضفاء حالة الوحدة ورصّ الصفوف.

دعوات فارغة:

واجهت الشعائر الحسينية على طول التاريخ حملات مباشرة وصلت إلى حد القتل والتنكيل والاضطهاد بحق ممارسيها، وكان ذلك أيام الدولة الأموية والعباسية، وكذلك العثمانية، وكل تلك المحاولات لطمس الشعائر الحسينية قد باءت بالفشل.

وجاءت اليوم أوجه جديدة منحرفة انحدرت من أصلاب المسلمين ويغذيها فكر المستعمر لتوجه سهامها إلى هذه الشعائر مدعية أنها دلالة التخلف والرجعية، فكشفت عن نفسها بارتباطها بالاستعمار الأجنبي فكان مصير كل محاولاتها الفشل أيضاً.

غير أن الانكى من ذلك وغير المتوقع أن تدعو أصوات تحمل في ظاهرها أهداف الحسين عليه السلام ولكنها تضمر في داخلها ثقافة دخيلة تريد أن تحرف هذه الشعائر وتقص منها بدعوى

(عقلنة الشعائر) والاقتصار على مجالس المحاضرات والذكر فقط، وفي رأيها أنه: لا داعي لكل هذه المسيرات العزائية ونحوها.

ومع الأسف، تجاوبت مع هذه الآراء نفوس بريئة، وأخذت تردد شعاراتها دون وعي ولا إدراك منها أن هذه الدعوات مجردة لا حقيقة لها، فهم ـ وللأسف ـ من حيث يشعرون أو لا يشعرون يضربون قضية الحسين عليه السلام ويطفئون تلك الحرارة التي بقيت في النفوس إلى يومنا هذا.

ونحن نتساءل: لماذا هؤلاء لا يفتحون النار ويوجهون سهامهم لمكافحة المحرمات العلنية في دولهم؟!، ولماذا لا يقفون أمام المنكرات والفساد؟!، أليس ذلك أولى حيث يستشري الفساد في مجتمعنا كالنار في الهشيم؟ أم أنها انهزامية واضحة؟، فهؤلاء الذين يدعون إلى ذلك إنما هم في حقيقة الأمر من المثقفين بثقافة الغرب الانهزامية، فبسبب ضعف الثقافة الدينية والابتعاد عن القيم الروحانية والأخلاق الفاضلة، كل ذلك كان سبباً لهذه الدعوات الهدّامة.

لنعمل من أجل الحسين عليه السلام:

استخدام التكنولوجيا ضرورة من الضرورات التي يفرضها الواقع المعاش، فهي تعتبر وسائل اتصال حديثة لإيصال المعلومة بأقصر الطرق وأسهلها، فكيف ونحن اليوم نعيش ما يسمى بعصر

(العولمة)، بحيث أضحى العالم من خلال تلك الاتصالات ـ التي تعتبر (شبكة الإنترنت) أبرزها ـ قرية كونية صغيرة. فلا بد إذن أن يستفيد المسلمون من ذلك في نشر قضايا الإسلام، وطرح فكر أهل البيت عليهم السلام، وشرح قضية الإمام الحسين عليه السلام.

إننا مطالبون أن نعمل بجد واجتهاد، وأن نبدع على مستوى قضية الإمام الحسين عليه السلام وبالتحديد في أيام عاشوراء، وهذا يعتبر بمثابة جهاد العصر، حيث لا بد من إقامة مشاريع على مستوى الثورة المعلوماتية والإلكترونية والاتصالات الفضائية، كي نستطيع عبر هذه الآليات أن نصل إلى شعوب العالم ونخاطبها بألسنتها المختلفة، ونشرح لهم قضية الحسين عليه السلام وأبعادها وأهدافها.

المهم أن تكون لدينا قدرات علمية وفنية قادرة على مخاطبة العالم بلغاته، وهذا يحتاج إلى تجنيد طاقات بشرية هائلة.

الفهرس

الإهـداء ٥
المقدمة ٧

الفصل الأول: على نهج الأنبياء

وارث الأنبياء ١٣
أولاً الإرادة الإلهية ١٦
ثانياً المسألة الثقافية ١٨
العبرة والدمعة تاريخها وفلسفتها ٢٠
أما العبرة والأسوة ٢٣
ثالثاً تفعيل لا انفعال ٢٥
الامتداد ٢٦

الفصل الثاني: أوجه التشابه

ما هي أوجه التشابه بين ٢٩
الحسين والأنبياء ولماذا؟ ٢٩
التوحيد قاعدة الانطلاق ٣١
مشكلة الانحراف في المجتمعات ٣٤
الإنحراف الإجتماعي ٣٤
الإنحراف السياسي ٣٥
الانحراف الاقتصادي ٣٦
الإنحراف الثقافي ٣٦

الفصل الثالث: معادلة صعبة

ولادته يوم شهادته ٤١

عظمة الحسين عليه السلام ٤٣
ضبط النفس ٤٤
صراحة الحسين عليه السلام ٤٦
محاولات فاشلة ٥٢
عظمة الإستهانة ٥٨

الفصل الرابع: في ظلال الحسين

لنعيش الذكرى ٦٥
أفضل الطرق ٦٧
توظيف أهداف الثورة ٧٢

الفصل الخامس: خطاب متميز

استقطاب ٧٩
العزاء الحسيني ٨١
مميزات حسينية ٨٢
أمل وألم ٨٢
الانتماء الحقيقي ٨٤
بكاء وحزن جماعي ٨٦
رفض واحتجاج ٩١
توظيف الخطاب الحسيني ٩٣

الفصل السادس: دعوى فارغة

التعاطي مع عاشوراء ٩٧
عاشوراء توحيد صفوف الأمة ٩٩
دعوات فارغة ١٠٠
لنعمل من أجل الحسين عليه السلام ١٠١